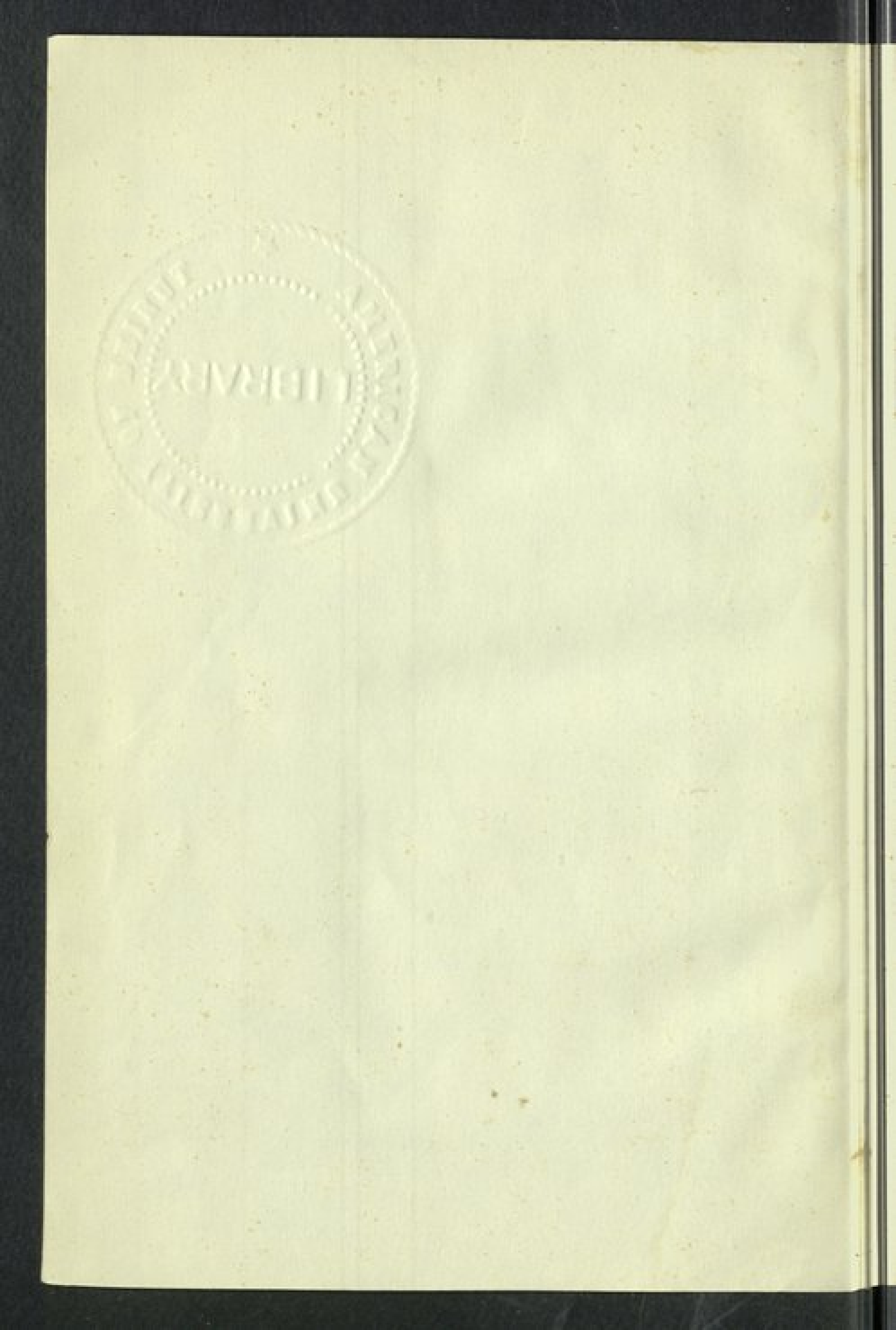
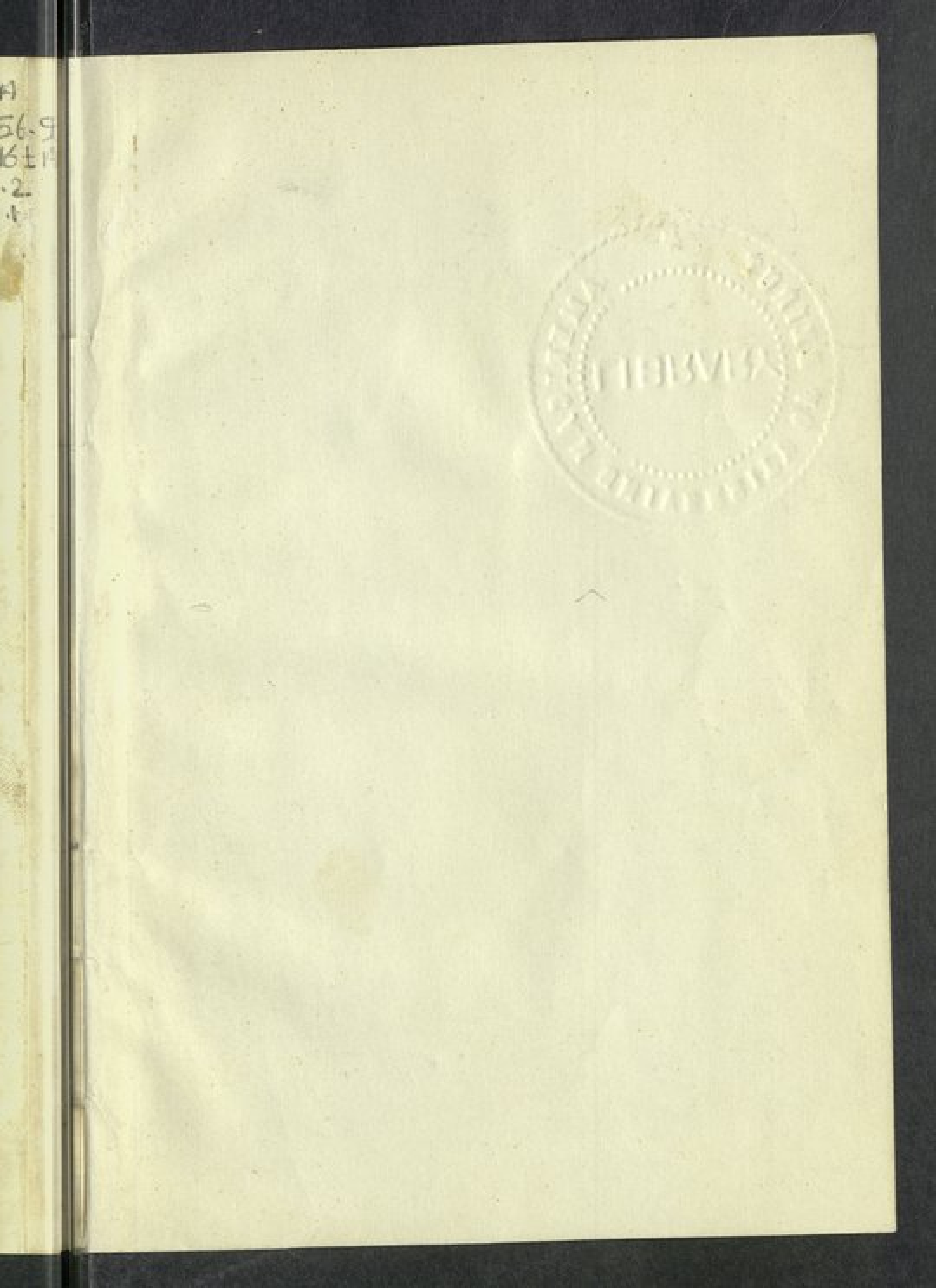




تاريخ سورية ولبنان المصوّر

الجزء الثاني

تأليف

زكي النقاش ب. ع.
مدرس التاريخ في كلية المقاصد الاسلامية
في بيروت

عمر فروخ ب. ع.
مدرس الأدب العربي في كلية المقاصد الاسلامية
في بيروت

ايها الفتى

ترى على غلاف هذا الكتاب :

ازهار بلادك الجميلة واثمارها الشهية

وتستطيع فيه تاريخ بلادك المجيد

عليك اذن ان تحبها لان الله خلقها جميلة
والتاريخ جعلها عظيمة .

مطبعة الكشاف بيروت



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد صح ما توقعناه للجزء الاول من الاقبال ؛ وسرنا ان التلاميذ انفسهم كانوا يشعرون بلذة وهم يدرسونه ، فلم يبق التاريخ اذن فرعاً جافا مملا . وها نحن اولا نقدم الجزء الثاني للتلاميذ الذين يبدأون سنتهم الرابعة بعد اجتيازهم حديقة الاطفال او مدارس الحضانة .

واجملنا في هذا الجزء تاريخ سورية منذ اقدم العصور باسلوب يصور البيئة السورية تصويراً يبقى واضحا في ذهن الطالب لانه يقوم على تفهم الحوادث عن اقرب طريق الى عقلية التلميذ الذي لم يتجاوز بعدُ الثالثة عشرة من عمره .

اما التاريخ القديم فقد عُنينا به في هذا الجزء عناية خاصة وخصصناه بمجال اوسع من المجال الذي عالجناه به في

الجزء الاول . ويلاحظ الاستاذ الكريم ان هنالك حقائق تاريخية عامة اهملناها في هذا الجزء وكنا قد ذكرناها في الجزء الاول ، وما ذلك الا لاننا احببنا ان نطلع التلميذ على اشياء جديدة وصور للحياة الاجتماعية ، غير اننا حفظنا سلسلة التاريخ السياسي غير مبتورة .

ويلاحظ الاستاذ الكريم ايضاً ان عنايتنا بالصور لم تنقص قط وان كان يؤسفنا ان الحصول على صور لادوار تاريخ سورية بنسب متساوية يكاد يكون – لكتاب مدرسي ككتابنا – مستحيلا .

وقد وصلتنا من بعض الاساتذة ملاحظات قيمة استنرنا بها في إعداد هذا الجزء وسنجعلها اساسا عند اعادة طبع الجزء الاول ، واعداد الجزء الثالث الذي سيتناول الادوار السياسية التي مرت بها سورية ؛ وسيعالج علاقاتها باوروبة وعلاقة اوروبة بها في مختلف العصور ، والذي سيكون لصف الشهادة الابتدائية . وفقنا الله الى خدمة النشء والامة والوطن .

المؤلفان

فهرست الجزء الثاني

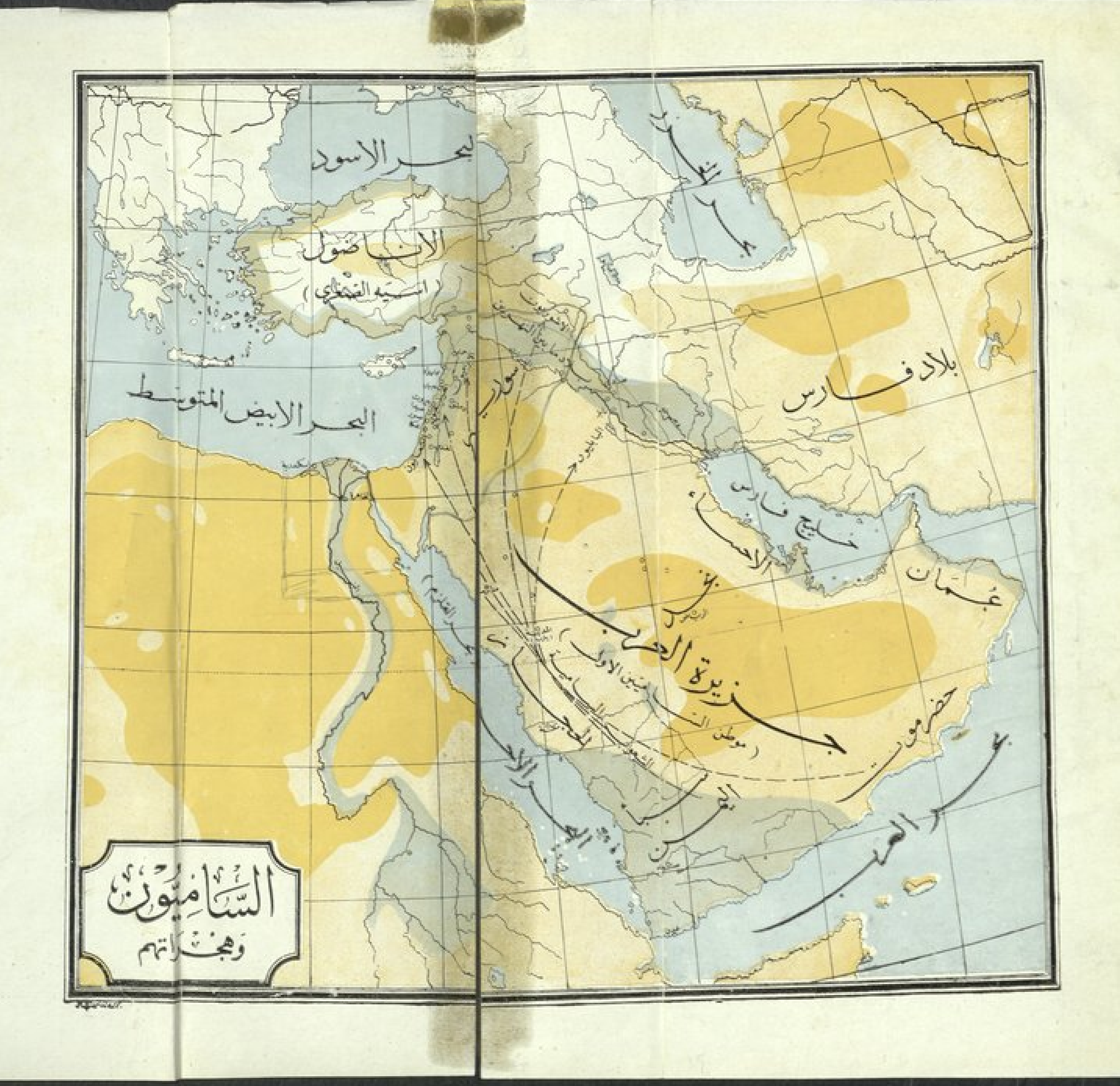


اصلاح الاغلاط المطبعية

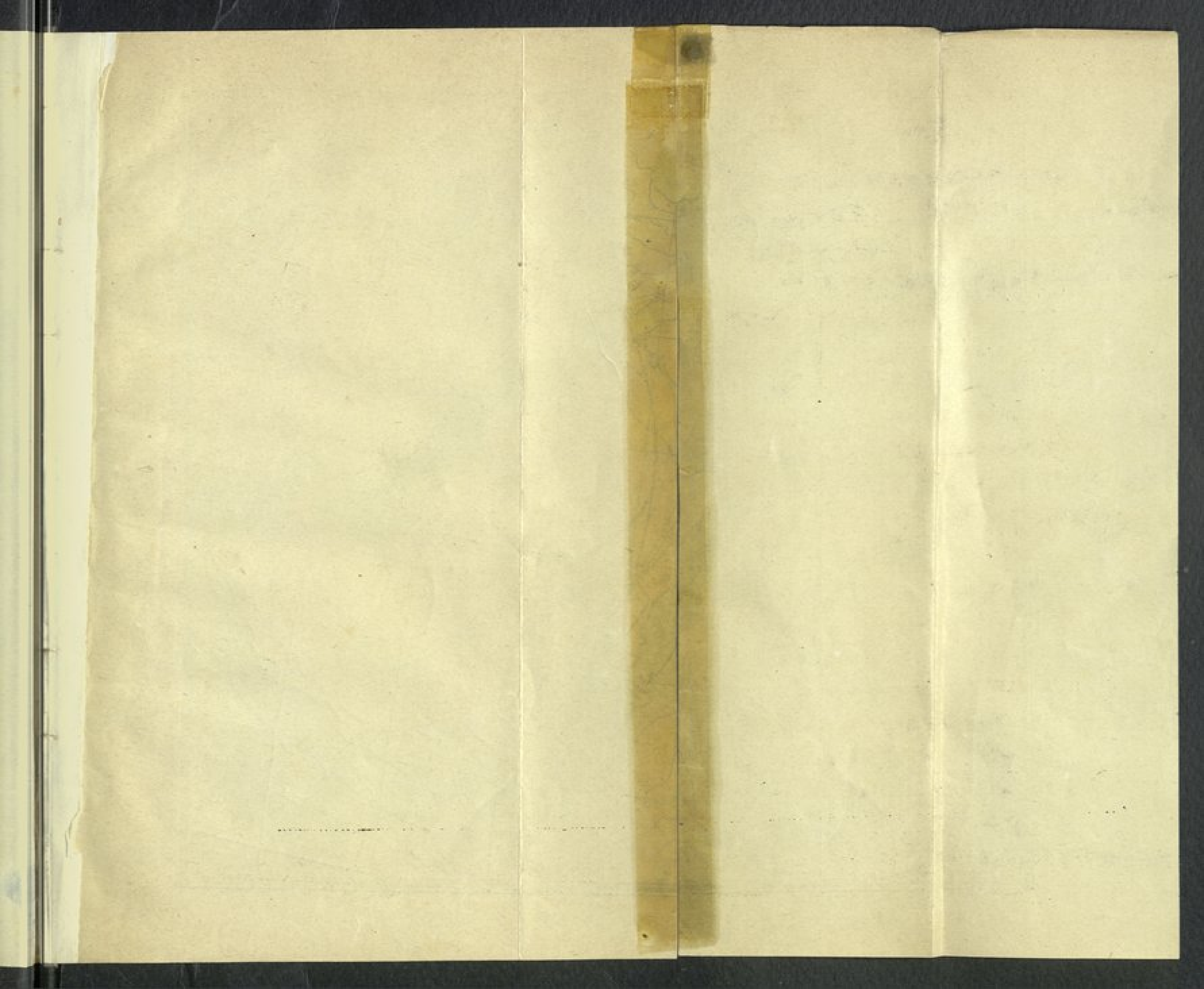
وقعت بعض الاغلاط في الملازم الاولى فالرجاء اصلاح المثبت منها حفظاً للمعنى ؛ اما البقيـة فقد تركنا اصلاحها لانها مستدركة كذهاب النقطتين من فوق التاء المربوطة .

[الرقم الاول قبل : للصفحة والذي بعدها للسطر ؛ والخطأ يسبق هذه العلامة = ، والصواب يتبعها .]

٢	:	١٧	ادواتا = ادوات .
١٢	:	٥	او يطوفون = ويطوفون
١٥	:	٥	احداهما = احدهما .
٢٢	:	١١	الغير سامية = غير السامية .
٢٣	:	٣	يحملها = يحملنها ، ٣١ : ٣ اسرا = اسرا .
٣٢	:	٩	الكلدان السبي = الكلدان والسبي .
٣٨	:	٥	ش ٠٠٠ = ش ٢٠ .
٥٨	.	١٥	ويغزون بعضهم بعضا = ويغزو بعضهم بعضا .
٥٨	:	١٩	عمره = عمره ، ٦٠ : ١٦ تخلط = تختلط .
٦١	:	١٣	فيصيب = فنصيب .
٦٢	:	٢	بالضراب = بالضرائب .
٦٤	:	١٥	للخلافة = بالخلافة ، ٧٨ ٠ ٧ دت = أدت .
٧٨	:	١٤	بلاطه = بلاطه .
١٠١	:	١٤	الصليبين = الصليبيين .
١١٠	:	١٥	العزالى = الغزالي .
١٢٦	:	١٢	= ادرك لاسطول الانكليزي الاسطول الافرنسي



الساميون
وهجراتهم
بحر الاسود
الاناضول
(اسيه الصغرى)
البحر الابيض المتوسط
بلاد فارس
خليج فارس
عُمان
جزيرة العرب
حضرموت
بحر العرب



القسم الاول

سورية في العصور القديمة ٤٠٠٠ ق.م — ٦١٠ م

١ ـ الانسان القديم

سورية قبل التاريخ ـ قد تتوهم ان سورية كانت دائماً كما هي اليوم : فيها المدن العامرة ، والمزارع الزاهرة ؛ تخترقها الخطوط الحديدية ، والطرق المعبدة التي تتسابق عليها السيارات ، وهي تنقل الناس الى اعمالهم ونزهاتهم . والحقيقة غير ذلك ؛ فان الكتابات القديمة التي عثر عليها المنقبون في مصر وبابل ، تخبرنا ان بلادنا كانت ، قبل ستة آلاف سنة ، خالية من كل آثار العمران التي نشاهدها اليوم .

لقد كانت الغابات الكثيفة تكسو جبال سورية ، وتملأ اوديتها ، وتغطي سهولها حتى تتصل بالبحر . وفي تلك الغابات ،

التي كثرت فيها الوحوش الكبيرة وحالت كثافتها دون نفوذ نور الشمس اليها ، كان يعيش سكان سورية الاولون في همجيتهم الاولى : لا بيوت يأوون اليها ، ولا أثواب يرتدونها . لقد كانت حالتهم أشبه بحال الحيوان : يعلو اجسامهم العارية شعر كثيف ؛ وكانت تهاجمهم الوحوش الضارية ، وتقسو عليهم الطبيعة فلا يستطيعون اتقاء حرها ولا بردها .



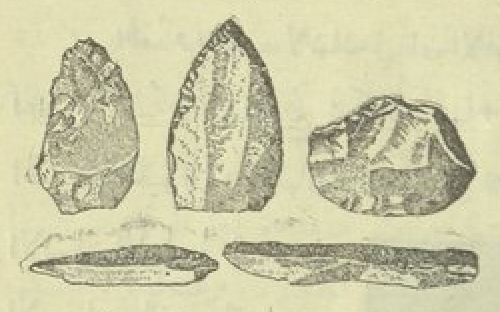
(شكل ١) الانسان الاول كما تصوره احد العلماء

وظل السوري الاول على هذه الحال من التعاسة والجهل حتى هداه عقله الى التقاط الهراوة (عصا ضخمة) ، والهجوم بها على الحيوانات الصغيرة . فكانت الهراوة أول سلاح توسل به اجدادنا الاولون الى حماية انفسهم .

العصر الحجري — في حياة الانسان دور سماه المؤرخون : « العصر الحجري » او العصر السابق للتاريخ لان البشر ظلوا فيه يجهلون الكتابة و كانوا يتخذون فيه من الحجر ادواتاً

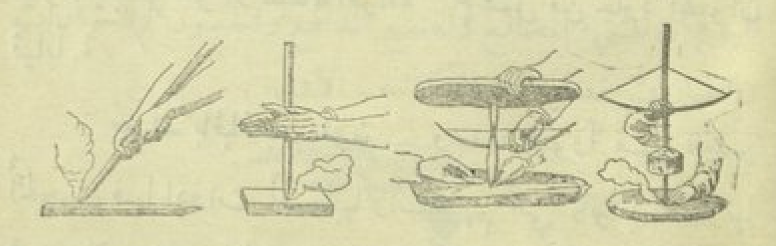
لاعمالهم اليومية . وقد عثر المنقبون في بلادنا عند شواطي٠ الانهار وفي بطون الاودية على أدوات حجرية كان السوريون الاولون يستعملونها كما نستعمل نحن اليوم السكين او الفأس.

ثم تفننوا في صنع الظران ؛ وبدا لبعضهم ان يشدها الى اغصان مقطوعة من الاشجار فيجعل منها رمحاً او فأساً لقطع الاغصان او صيد الحيوان .



(شكل ٢) : ادوات مختلفة من الظُران

ايقاد النار — يظهر ان الانسان الاول شاهد صاعقة تسقط في الغابة فتحرق قسماً منها . ثم اتفق له ان وجد ، بعد



(شكل ٣) طرق مختلفة لايقاد النار

ذلك ، حيواناً محترقاً وذاقه ، فاستطاب اللحم مشوياً ؛ فجعل يحاول ايقاد النار بنفسه حتى اهتدى الى ايقادها بحك قطعتين من الخشب كما ترى في ش (٣) .

اللغة والفن — لاشك في ان الانسان كان في اول أمره اعجم ، — لا يستطيع الكلام — ؛ ثم اهتدى الى تقليد اصوات الحيوان والانهار والصواعق للتفاهم . على ان همجية الانسان الاول لم تمنعه من الاحساس بالفن . لقد صنع ادواته الحجرية على اشكال مختلفة ؛ واتخذ من عظام الحيوان ومن الصدف عقوداً يلبسها هو او تلبسه امرأته ، ثم عمل من جلود الحيوان ثياباً .

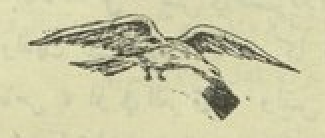
(شكل ٤) عقد من عظام وصدف

معرفته بالحياة بعد الموت — وجدنا قبوراً من العصر الحجري فيها ادوات أصحابها وأسلحتهم التي كانوا يستعملونها في حياتهم مما جعلنا نعتقد انهم فكروا في الحاجة اليها بعد

موتهم فطلبوا أن تدفن معهم . واعتقد الانسان الاول بوجود آله تجب له العبادة .

انقضاء العصر الحجري — طال العصر الحجري كثيراً . ثم اتفق أن مصرياً كان يطوف في صحراء سيناء منذ نحو ٤٠٠٠ سنة ؛ فلما نزل الليل اشعل ناراً ثم تركها مشتعلة ونام . فلما أصبح رأى نور الشمس ينعكس عن أجزاء صلبة بين الرماد . وقد ايقن — من رؤيتها مرات متعددة بين الرماد — انها تحدث من احتراق نوع من الحجارة . وهكذا اكتشف الانسان الاول النحاس — المعدن الاول الذي عرفه العالم — .

استعمل الانسان النحاس في اول الامر للزينة ؛ ثم بدا له أن يتخذ منه آلاته وأدواته . وهكذا خرج الانسان من العصر الحجري الى العصر المعدني ؛ وهكذا أصبح بامكاننا اليوم أن ننشئ المصانع ونصنع المدافع والجسور ، والسيارات والطيارات بفضل ذلك المكتشف الاول .



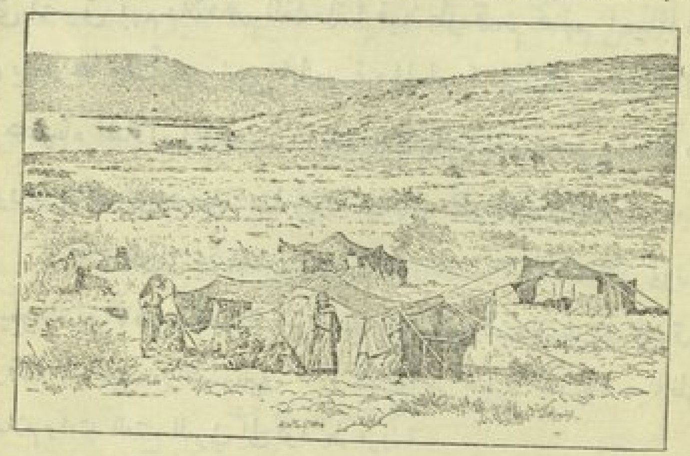
٢ _ استقرار الساميين في الهلال الخصيب

مهد الساميين – ان سكان سورية ولبنان ، وفلسطين والعراق ، وبلاد العرب ومصر كلهم ينتمون الى أصل واحد: هو الجنس السامي ؛ ويتكلمون اليوم لغة واحدة : هي اللغة العربية . ولجميع هؤلاء السكان عادات واحدة ، وتفكير واحد ، وتقاليد واحـدة ورثوها عن اسلافهم الاولين ؛ او اكتسبوها من جيرانهم ، ومن الذين نزلوا في بلادهم مـن التجار والفاتحين .

نشأة الساميين – هذا الشعب العظيم، الذي نسميه الشعب السامي ، نشأ في قلب شبه جزيرة العرب ؛ التي يحيط بهـا الماء من ثلاث جهات : الخليج الفارسي من الشرق ، وبحر العرب من الجنوب ، والبحر الاحمر من الغرب، اما من الشمال فتنتهي عند العراق شرقا وسورية غربا . ومن هذا الشعب السامي انحدرنا نحن وجميع الذين يسكنون اليوم شواطىء البحر المتوسط ، الشرقية والجنوبية .

الساميون بدو رحل – ليس في قلب بلاد العرب انهار دائمة ، ولا خزانات للمياه ؛ ولذلك ليس فيهـا زراعة كما نعرفها في سهل البقاع وحوران ومرج ابن عامر ، او في العراق . وليس باستطاعة سكانهـا استخراج ما فيها من معادن كالحديد والفحم والنحاس لتنشأ الصناعات .

غير ان المراعي الموقتة هنالك ، والمياه القليلة لا تمكن الاهالي من تربية المواشي فيرحلون بها من مرعى الى آخر ، فاذا رعته كله انتقلوا بها الى غيره . وهكذا يفعلون على مدار السنة وكر السنين . من اجل ذلك كان اكثر الساميين قبل هجرتهم قديماً وحديثاً بدواً رحلا اي يعيشون في البادية وينتقلون من مكان الى مكان بمواشيهم واهلهم ومساكنهم .



(شكل ٥) جماعة من الساميين اثناء هجرتهم الى مراعي الهلال الخصيب

شجاعة البدو وفروسيتهم — يعيش البدو بعيدين عن العمران — المدن — معرضين لهجوم الوحوش مضطرين الى غزو جيرانهم ، او صد هجومهم . ولهذا تراهم منذ صغرهم يتعلمون الفروسية — ركوب الخيل — واستعمال السلاح لحماية اهلهم ومواشيهم .

الهلال الخصيب — على الخارطة منطقة خضراء اللون تمتد

من شمالي الخليج الفارسي إلى أعالي العراق ؛ ثم تنحدر ممتدة على الشاطئ الشرقي من البحر الابيض المتوسط. هذه المنطقة تدعى الهلال الخصب لانها تشبه الهلال ، ولانها خصبة جداً.

الهجرات السامية — كان سكان شبه جزيرة العرب يتكاثرون حتى تضيق بهم بلادهم القاحلة ، فيضطر قسم منهم احياناً الى أن يهجرها طلباً للمراعي الخصبة والمياه ؛ فيذهب شمالا الى ما دعوناه الهلال الخصب . وتعددت الهجرات حتى امتلأت سورية والعراق ومصر والحبشة وشمالي افريقية بالساميين .

وكانت المدة بين الهجرة والهجرة نحو الف سنة . بدأت الاولى قبل المسيح بثلاثة آلاف وخمسمائة عام ؛ حينما نزلت الموجات الاولى في العراق ، وعرفت بالبابليين والاشوريين . وكانت آخر هجرة كبيرة حينما ظهر الاسلام وامتد الفتح العربي الى اواسط فرنسة .

لما نزل الساميون سورية وجدوا فيها سكان العصر الحجري — غير الساميين — ولكن سرعان ما تغلبوا عليهم ، وسادوهم . ثم كانت فتوح كثيرة ، وامم تغلبت على بلادنا في جميع ادوار التاريخ ؛ ومع ذلك فان الميزات الاساسية ظلت سامية ، واللغة العامة ظلت احدى اللغات السامية ، كما هي

العربية اليوم .

الاسرة السامية – للاب في الاسرة السامية سلطة واسعة يخضع لها جميع الافراد ؛ وللجَد سلطة اوسع . و كلما زاد عدد افراد الاسرة زاد نفوذ رئيسها حتى تصبح عشيرة ، فيمسي ذلك الرئيس حاكماً مطاعاً . وحياتنا البيتية اليوم تشبه حياة اسلافنا الساميين .

وشيخ القبيلة او رئيسها اكبر افرادها سناً . الا ان القبيلة قد تنتخب احياناً من هو اعظم افرادها عقلا او شجاعة او ثروة . لهذا تجد شيخ القبيلة في بعض الاحيان شاباً لم يبلغ الاربعين من عمره .

٣ _ الأُموريون

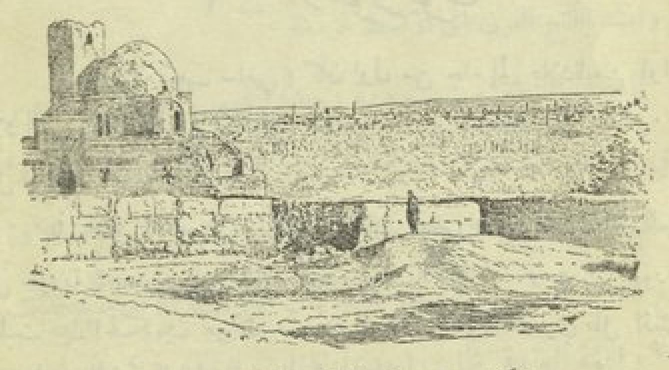
الاموريون شعب سامي ؛ كان اول من جاء إلى بلادنا من اواسط بلاد العرب ، عن طريق شواطيء الخليج الفارسي ؛ وذلك بين ٢٨٠٠ و ٢٥٠٠ قبل الميلاد .

في هذه الاعصر وما تلاها ، كانت مصر وبابل تتنازعان السيادة على سورية للحصول على الخشب المعدوم في بلادهما . ومع ان سورية تقلبت بين الحكمين مرات متعددة ، فان النفوذ المصري ظل اثبت في جنوبها ، والنفوذ البابلي اقوى في شمالها .

ويظهر لنا هـذا النفوذ الغريب ، في طريقة معيشة الرؤساء ؛ فالذين كانوا في جنوب سورية يتبعون الزيّ المصري ؛ بينما الذين كانوا في شمالِ سورية يتبعون في حياتهم الزي البابلي .

اما عامة الشعب فكانوا لايزالون في اول درجات الرقي : كانوا قد تركوا السكنى في الكهوف والمغاور ليجعلوها مقابر لامواتهم ، او صهاريج لجمع المياه ؛ وقد بدأوا يبنون لسكناهم البيوت الحقيرة من لَبِنٍ (طين غير مشوى) او آجرّ (طين مشوى) .

في هذه الاثناء جعل الاموريون يقتربون من سهول بردى ، حيث ابتنوا مدينتهم أُموري (دِمَشق) — وهي اقدم مدينة لاتزال عامرة الى يومنا هذا .



(شكل ٦) دمشق القائمة على انقاض اموري

٤ ـ الفينيقيون وآثارهم المعمارية

لاشك في انك تذكر من العام الماضي أن الفينيقيين شعب سامي نزل على الساحل الممتد بين حيفا واللاذقية ؛ وانهم كانوا تجاراً وملاحين . فكثروا على الشواطيء ، واسسوا المدن الساحلية التي جعلوا منها حكومات مستقلة ولقد حدثتك عن صور وصباغ الأرجوان فيها ، وعن صيدا. وصناعة الزجاج فيها ثم علمت ان الفينيقيين احتاجوا ان يقيدوا بضائعهم وديونهم فأستنبطوا الأحرف الهجائية ، ونشروها بين الشعوب القديمة والآن سنحدثك عن ديانة الفينيقيين ، وابنيتهم ؛ وعن بعض عاداتهم الاجتماعية .

الدين عند الفينيقيين ــ الساميون كلهم في الأصل مُوَحِّدون ــ اي يعبدون الهاً واحداً ــ ؛ وعلى هذا كان الفينيقيون في طورهم الاول . ثم جعلوا يمثلون صفات الله الواحد بتماثيل تدل عليها ، فخرجوا بذلك عن اساس التوحيد وكثرت اصنامهم وآلهتهم وجعلوا يعبدون منها الآله بعل والالاهة عشتروت وهما اكبر الآلهة ثم يضيفون اليهما ادونيس وإله أشمون وغيرهم .

وطريقة عبادة الفينيقيين ، وخصوصاً في المواسم

والاعياد : ان يقتلعوا شجرة كبيرة من جذورها ؛ ثم يأتون بها الى داخل الهيكل، ويعلقون عليها الضحايا : من غنم ومعزى وطيور وثياب حريرية ، او كؤوس ثمينة . بعدئذ يُخرجون آله ذلك الهيكل ؛ وبينما هم في الخارج تحرق الشجرة بما عليها . ثم يدخلون بالصنم وهم ينشدون او يطوفون حول الشجرة حتى تخمد النار .

طراز البناء — كان البناء الفينيقي، في اول عهده، بسيطاً جداً ؛ ولكنه في غاية الدقة والضخامة . كان يتألف عادة من حجارة كبيرة الحجم جداً مرصوفة من غير مَلاط (طين البناء) رصفاً محكماً لايدع مكاناً لمرور ابرة بين حجرين .

بعد زمن عمد الفينيقيون ، في تزيين مدخل بنائهم ، الى اقامة الاعمدة القليلة على هيئة النخيل — لكثرة هذا الشجر في بلادهم — حتى ليخيل الينا ان هذه الزخرفة الجميلة خاصة بالفينيقيين . وهذا يصدق دائماً على الهياكل او بيوت العبادة ، وعلى القصور . اما بيوت العامة فلم يكن يعتنى بها ، وليس بوسعنا أن نبين طراز البيوت لانها درست .

معبد عمريت — بنى سكان ارواد على الشاطيء المواجه لجزيرتهم مدينة سموها عمريت ولاتزال فيها آثارهم حتى اليوم. واشهر آثارها التي ترينا صورة صادقة للبناء الفينيقي معبدها ومدافنها.

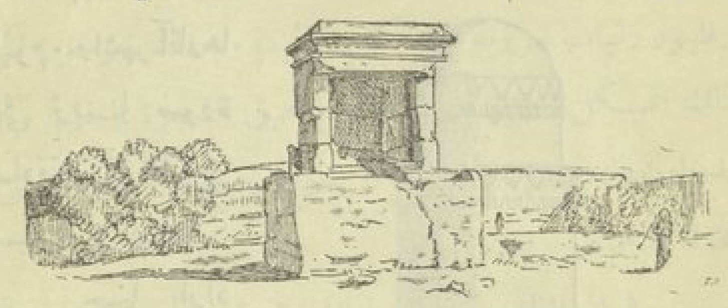


(شكل ٧) مدفن فينيقي

حينما اراد الارواديون بناء هذا المعبد نحتوا صخراً كبيراً وجعلوا منه سطحاً عظيما طوله نحو خمسين متراً، وعرضه ثمانية واربعون. وكانوا قد تركوا في وسط هذا المسطح قطعة مكعبة ارتفاعها ثلاثة امتار؛ وطولها خمسة امتار ونصف، وعرضها مثل ذلك.

اما المعبد نفسه فبناء مكعب له جدران ثلاثة كل جدار منها حجر واحد، ارتفاعه نحو اربعة امتار ونصف. وقد جُعل السقف ايضاً حجراً واحداً مشرفاً فوق الجهة

الرابعة المفتوحة على نحو ما ترى في الصورة . وحبذا ان تلاحظ شكل المدفن لتعلم ناحية ثانية من البناء الفينيقي .



(شكل ٨) معبد عمريت

جبيل — وهنالك مدينة جبيل الواقعة على الطريق الممتد بين بيروت وطرابلس وهي اعظم شأناً من جميع المدن الفينيقية في الدين . كانت محج السوريين يأتون اليها للاحتفال باعياد آلهتها ولاسيما ادونيس اله الخصب الذي يصورونه على هيئة الشمس .

وجبيل اليوم مقصد السياح لكثرة ما عثر عليه المنقبون من آثار هيا كلها العظيمة وفنها الدقيق .

ثيابهم وعاداتهم — تأثر الفينيقيون بسكان مابين النهرين وخصوصاً فيما يتعلق بالشعر . فكان الرجال يجدلون لحاهم ، ويلبسون العقود والخواتم مثلهم . اما ثيابهم ، وخصوصاً في

الطبقات الدنيا، فكانت تتألف من قميص يصل الى اعلى الركبة فقط، منسوج من كتان او قطن، وخال من الزينة والزركشة .

لكن ثياب الاشراف والاغنياء كانت اطول، وكانت مزركشة كثيرة الثنايا . وكثيراً مايلبس هؤلاء ثوبين : احداهما عباءة تصل الى القدمين ، وثانيهما شبه قميص مقطوع الاكمام يصل الى نصف الجسم.



(شكل ٩) شريف فينيقي

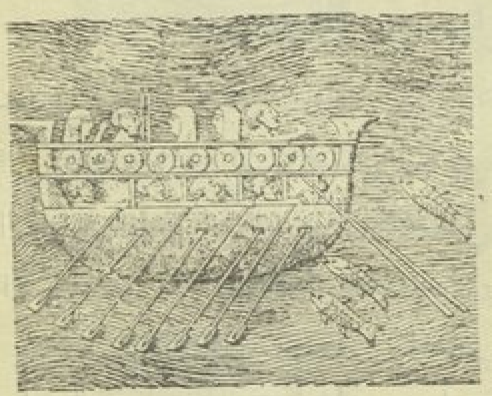
ومما يلفت النظر الى ثياب النساء خاصة انها كانت طويلة كثيرة الزركشة . واشتركت الفينيقيات مع الرجال في الحياة العامة : فكن يحضرن الاجتماعات والاحتفالات والمآدب . وربما جلسن وإياهم على مقاعد واحدة وعملن معهم في مصنع واحد .



(شكل ١٠) نساء فينيقيات

٥ ـ جيران سورية

يحيط بسورية ثلاثة اقطار كان لهـا في تاريخ بلادنا القديم والحديث اثر ظاهر : مصر وآسيه الصغرى والعراق . ويجمل بك الان أن تعلم أن التجار السوريين كانوا منذ عام ٢٠٠٠ ق.م. يحملون البضائع بين الحجاز واليمن والعراق وسورية وبين مصر . كانوا يحملون الطيب والاواني الزجاجية والادوات الحديدية وخشب الارز الى وادي النيل ؛ فتوثقت الصلات بين مصر وبلادنا حتى شاعت اللغة المصرية فى بعض انحائها . و كثيراً ما كان جنوبي سورية ملجأ للفارين من غضب فرعون او ظلم ولاته .



(شكل ١١) سفينة تجارية

واغرت هـذه الثروة والصناعة والخصب المصريين

بلادنا ، فسلبوها حريتها وحكموها في القرنين الخامس عشر والرابع عشر يرهقون اهاليها بالضرائب الفادحة . وقد اصطنعوا بعض السوريين ، واستخدموهم في جباية الضرائب من ابناء بلادهم ؛ لانهم أعلم بذلك من الاجنبي .

وبينما كان المصريون يحكمون سورية ، هبطها الحثيون من الشمال ؛ وهم امة حربية صنعت اسلحتها من الحديد بعد ان استخرجته من مناجم اسية الصغرى . وقد ظل النزاع بين المصريين والحثين في سورية سجالا حتى جاء شعب سامي جديد ، وجد فيه الحثيون مساعداً على المصريين ؛ واقتسموا معه النفوذ في شمالي سورية بعد ان تركوا المصريين في القسم الجنوبي . هـذا الشعب الجديد هو الشعب الآرامي الذي سندرسه في الفصل الثاني .



١ ٢

(شكل ١٢)

(١) رأس حثي انظر ما اقرب الشبه بينه وبين ارمني اليوم (٢)

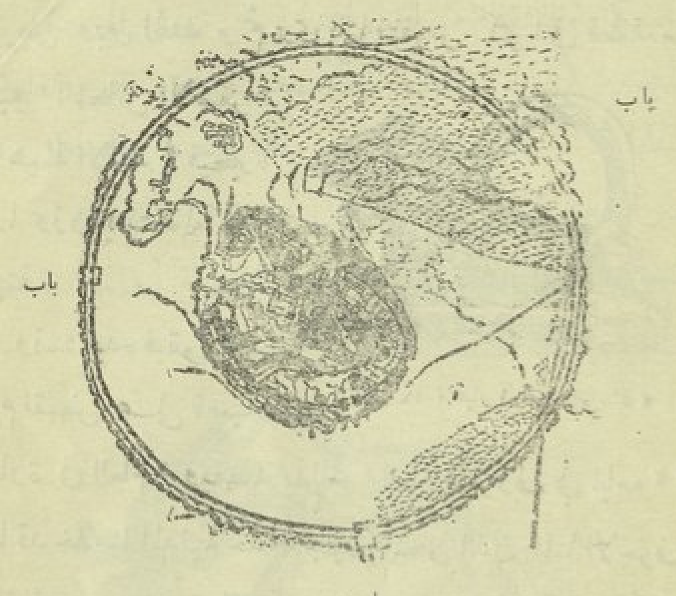
٦ـ الاراميون في الداخل ١٢٠٠ ق.م

اذا اردنا ان نتتبع الآراميين من مسكنهم الاصلي الى موطنهم الجديد وجب علينا ان نفعل كما فعلنا عند تتبع آثار اخوانهم : الاموريين والفينيقيين . انهم جاءوا من اواسط شبه جزيرة العرب يسوقون انعامهم ومواشيهم الى العراق ؛ ثم انحدروا غربا الى صحراء سورية ، واستقروا في لبنان الشرقي وحول دمشق الى قرب حماه .

ممالكهم وتركيب مدنهم — نحن الآن ننحدر مع القرن الرابع عشر قبل الميلاد بسرعة ؛ ولكننا لا نرى السوريين قد تعلموا توحيد الممالك سياسياً . انهم لايزالون ينشؤن ممالك مستقلة تتألف عادة من مدينة كبيرة ، ومما حولها من القرى والبساتين . وهذا ما فعله الآراميون حينما نزلوا في بلادنا . لقد انشأوا ممالك كثيرة « نحو عام ١٢٠٠ ق . م » منها مملكة حماه ومنها مملكة سامال في الشمال .

وصف مدينة سامال — نريد الآن ان نزور عاصمة مملكة سامال . نحن نقترب من الشمال رويداً رويداً وعند منتصف المسافة بين البحر المتوسط والفرات يبدو لنا تل صغير مرتفع عما حوله قليلا . ثم يبدو لاعيننا سور عظيم

مستدير، قاعدته من الحجر وسائره من اللبن . وفي اعلاه بروج يقف فيها الجند ايام الحروب ليردوا الاعداء عن المدينة .



(شكل ١٣) مدينة سامال « برسند »

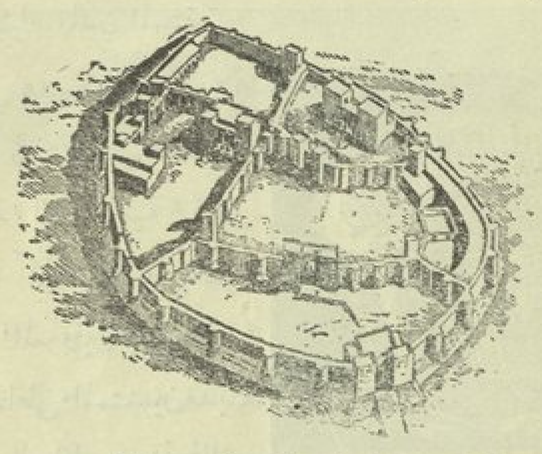
ندخل من احد ابواب هذا السور الثلاثة ، فيعترضنا سور آخر مثله فنخترقه فاذا نحن امام بيوت كلها مبنية من اللبن . وتستطيع تمييز بيوت الاشراف من بيوت العامة ؛ فهي اما مبنية على مستوى ارفع ، او هي اقرب الى سور القلعة نسير الآن في السوق ونحب ان نتكلم مع بعض

الاهلين فنتقدم من احدهم ، ونقول له باللغة الارامية « صباح الخير » . ثم نبدأ الحديث فنعلم ان الأهلين اكثرهم من التجار الذين يترددون بالبضائع الى البلدان المختلفة بين شواطىء البحر الابيض وبين الهند . ثم نرى اننا نتفرس كثيراً في قطعة من الشَبَهِ « النحاس الاصفر » على هيئة الاسد ، فيخبرنا انها وزن يستعمله تجار المدينة .


(شكل ١٤) عيار آرامي « برستد »

ونستزيده فيقول نحن اليوم نقبض على ناصية التجارة فى العالم « ويقصد بذلك ، العالم المعروف في ايامه » ، واننا قد خدمنا المدنية خدمة جليلة . فنحن الذين حملنا الاحرف الهجائية بعد ان استنبطها الفينيقيون ، ونشرناها في الشرق كله . وقد بلغ من اثرنا في الحياة الاجتماعية في جميع هذه البلاد ان الاهالي يتكلمون لغتنا الآراميه اكثر مما يتكلمون لغتهم ، فانها اللغة اليومية في جميع بلاد الهلال المخصب . وهي لغة رسمية في الحكومات ايضاً .

بعدئذ يذهب بنا هذا التاجر الوجيه ليرينا قصر الامير والهيكل . فنتقدم من قلب المدينة حتى نصل الى سور شبه مستديرش (١٥) ؛ مقطعٌ داخلهُ بجُدُر كثيرة ، تقوم القلعة في وسطها . ونجد حول القلعة قصور ملك المدينة والهيكل . هنا يسير التاجر الى الاعمدة ويقول لنا : « ان هذه الهندسة مأخوذة عن الهندسة المصرية ؛ اما الاروقة [الممرات حول البناء] فهندسة حثية » .



(شكل ١٥) قلعة ملك سامال وقصوره « ايضاً »

٧ – الكنعانيون في الجنوب ٢٥٠٠ ق.م

قد تعجب من تأخير بحث الكنعانيين عن بحث الفينيقيين مع انهم جاءوا معاً . وسبب ذلك ان اهمية الفينيقيين ظهرت قبل اهمية الكنعانيين .

نزل الفينيقيون على السواحل الشمالية من سورية ونزل اخوانهم الكنعانيون في الجنوب . وكان استعداد الفينيقيين وخصب بلادهم وازدهار تجارتهم ميزة لهم من اخوانهم فتقدموهم بمراحل . وهكذا اخذ الكنعانيون بعد زمن طويل يقلدون الفينيقيين في بناء المدن والاسوار ، وفي انشاء المدن المستقلة .



(شكل ١٦) جندي فلسطيني

في هذه الاثناء ١٢٠٠ ق.م كانت بعض الشعوب الآرية « الغيرسامية » تهجر جزيرة كريت فلجأ بعض هؤلاء المعروفين «بالفلسطين» الى الشاطئ الممتدبين مدينة العريش ويافا . ومنذ ذلك الحين اصبح اسم جنوبي

سورية فلسطين .

واشتد النزاع بين الفلسطينيين النازحين وبين الكنعانيين المتوطنين واستمرت الحرب بينهم بدون نتيجة حاسمة .

يسرنا الآن ان نسير في اسواق فلسطين ؛ فاذا فعلنا علمنا حالا ان البلاد غير خصبة : لاتستطيع ان تقدم لاهلها كل ما يحتاجون اليه ، وان المطر فيها قليل والمياه على نسبة ذلك . نعلم هذا من رؤية النساء رائحات غاديات لملء جرارهن التي يحملنها على رؤوسهن .



(شكل ١٧) قافلة من الكنعانيين

ثم نصل الى الساحات والاسواق فنرى تجاراً مختلفي الازياء لانهم من بلدان مختلفة جداً . فهذه حلى شبهية او عاجية جاء بها صاحبها من مصر ؛ وتلك ادوات خزف او فخار حملها التاجر الحثي او الايجي من اسيا الصغرى ، او بلاد البلقان . وهناك رجل قرب باب الهيكل ، ينشر امامه منسوجات

صوفية مزركشة اتى بها من بلاد بابل .

لانمشي غير يسير حتى نسمع جلبة وضوضاء يتخللها نهيق مزعج فنعلم ان تجاراً جاءوا بحمير من ضفاف الفرات والنيل لبيعها هنا . وقد ترى بين الفَيْنة والفينة تاجراً يكتب قوائم بضاعته بالكتابة المسمارية التي تعلّمها في اثناء رحلاته العديدة الى ما بين النهرين .

***

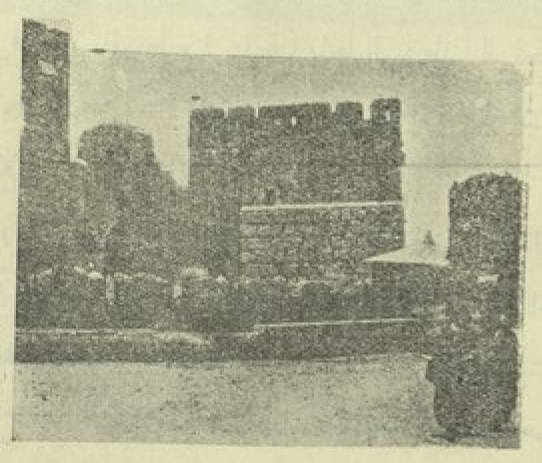
٨ – العبرانيون

جاء العبرانيون مما بين النهرين بعد الكنعانيين ؛ ثم هاجر قسم منهم الى مصر طلباً للخصب فتلقفهم ولاة فرعون واستخدموهم في تشييد الابنية العظيمة كالهياكل والأهرام وغيرها ، وساموهم سوء العذاب . ثم بعث الله فيهم موسى عليه السلام نبياً فانقذهم . فرجعوا الى فلسطين ، وهم لايزالون رُحَّلا يعيشون في الخيام ويرتدون الجلود .

تمدنهم — وقضى العبرانيون مائة وخمسين عاما يحاربون الكنعانيين والفلسطينيين فلم يتغلبوا عليهم بل امتزجوا بهم بالتزاوج والسكنى واقتباس العادات . تعلم العبرانيون من الكنعانيين سكنى المدن ، والبناء بالحجارة ؛

وتعلموا رفع الاسوار . ثم ارادوا زعيما يجمع اشتاتهم فصح لهم ذلك في رجل اسمه شاول ، تلقب بالملك ، وحارب بهم الفلسطينيين . ولكنه انهزم هزيمة فاضحة ؛ فودع الحياة منتحراً (عام ١٠٠٠ ق . م) .

وظل العبرانيون مشتتين حتى ملك عليهم داوود من قبيلة يهوذا النازلة في الجنوب وهزم اعداءهم . عندئذ تمكن من اخذ قلعة كنعانية كانت على جبل الزيتون ؛ واراد ان يبني فيها هيكلا يجعله قبلة العبرانيين . ولكنه توفي (عام ٩٣٣ ق . م) قبل ان تتحقق امنيته . واشتهر داوود بشجاعته



(شكل ١٨) قلعة مدينة داود «القدس»

وبصوته الجميل .

البيت العبراني — كان البيت العبراني بسيطاً جداً . هو دار ذات طبقة واحدة سقفها مرتفع ، وارضها لا حواجز فيها . ينام افراد الاسرة في جانب من هذه الدار ، وتربب المواشي في جانب آخر منها ش (١٩) . واراد العبرانيون ان تقيهم بيوتهم هم وبهائمهم من تقلب الجو وحر الشمس خاصة ، فلم يجعلوا البيت كثير النوافذ ، ولا الباب مرتفعاً . وكانوا يقولون : علو الباب يقود الى الخراب .

اما اتجاه الباب فكان دائماً الى الشمال كيلا يكون معرضاً للشمس ، وعلى هذا اكثر بيوتنا الى الآن . وقد يبني الغني غرفة على السطح (علية) يلجأ اليها طلباً للراحة او هرباً من الضجة . ومن علامات الغنى ان يكون للبيت صهريج (بئر لجمع ماء المطر) .

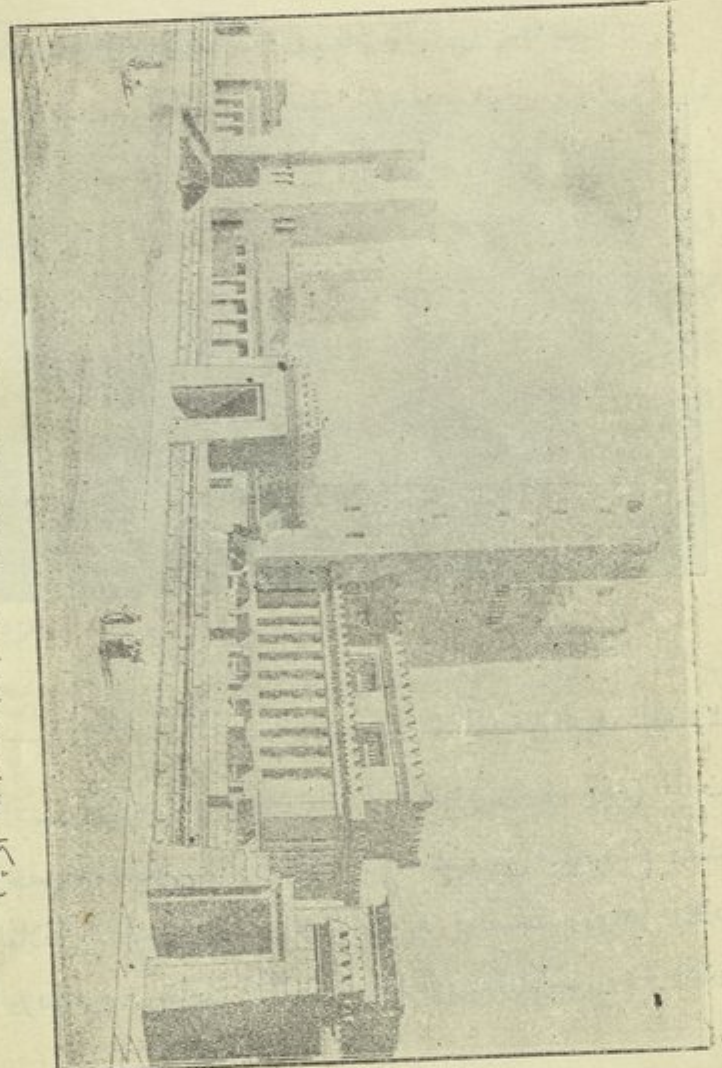
وكان للسطح فوائد اخرى : ينشرون عليه الغسيل ، ويجففون الغلال ، او يصعدون اليه للنزهة والتفرج ، اذا حدث في البلد حادثة مهمة . اما طرقهم فكانت ضيقة جداً ، وقذرة جداً تسرح فيها الكلاب لالتقاط فضلات الطعام من اقذار

المنازل الملقاة قرب الجدران او في وسط الطريق . وهي تعوي عواء مزعجاً يصم الآذان .



(شكل ١٩) قرية فلسطينية وما اشبهها بالقرى العبرانية القديمة

سليمان الحكيم — ورث سليمان المُلكَ من ابيه داوود ، وكان ملكا عمرانياً حسن الذوق ، فجعل همه تزيين المدن وخصوصاً القدس (اورشليم) عاصمة ابيه من قبل . ثم وطد العلائق التجارية مع جيرانه الآراميين والفينيقيين واهل بلاد العرب ومصر خاصة فكثرت الرفاهية بزيادة الاموال وازدهار



(شكل ٢٠) معبد سليمان ادرسه جيدا ولاحظ ما فيه من اتقان ودقة وجمال

التجارة . بعدئذ حقق امنية ابيه فاتم بناء الهيكل وتزيينه مستعيناً بالمهندسين ومهرة الصناع من الفينيقيين ، فشيدوه بخشب الارز وزينوه بزجاج صيداء ، وافرغوا فيه كل مجهود حتى اتى اعجوبة في البنيان القديم يدل على ما وصل اليه الذوق الفينيقي في البناء والزخرفة ش (٢٠) .

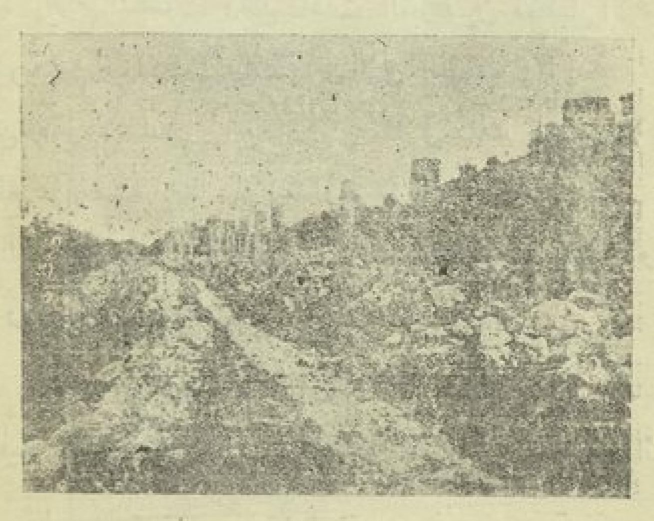
وقلدت العامة سليمان فتعددت غرف بيوتهم : هذه للنوم وتلك للاستقبال وهذه للمائدة . وتعود العبرانيون الاكل معاً — كما نفعل نحن — يعتقدون انه يزيد اعضاء الاسرة الفة والاكل بركة .

يوم السبت — ومن عادات العبرانيين تعطيل الاعمال الدنيوية يوم السبت ، وانصرافهم الى العبادة والراحة . ولم يكن يجوز لاحدهم ان يعمل عملا في ذلك اليوم ولا ان يدافع عن نفسه . ولما علم اعداؤهم بذلك جعلوا يهاجمونهم في ايام السبوت ويستولون على اموالهم وبلادهم بسهولة . وقد تغير راي بعضهم في السبت في ايامنا هذه .

اسرائيل ويهوذا — ان نفقات سليمان على تشييد الابنية ، وعلى اهل بلاطه ورفاهيته ، ادت الى زيادة الضرائب

ثم نبتت البغضاء بين سكان الجنوب الذين يعبدون الله (ويسمونه يَهْوَه) ، وبين سكان الشمال المتأثرين بعبادة الفينيقيين الوثنية وعاداتهم . فما كاد سليمان يُتوفى حتى تقسمت البلاد قسمين : مملكة اسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة (قرب نابلس) ، ومملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها اورشليم .

العبرانيون والتوحيد — كان العبرانيون اول من رجع عن عبادة الاصنام ، ونشر في العالم فكرة التوحيد . وقد ظهر فيهم انبياء كثيرون .



(شكل ٢١) خرائب مدينة السامرة

٩ — جيران سورية في العراق

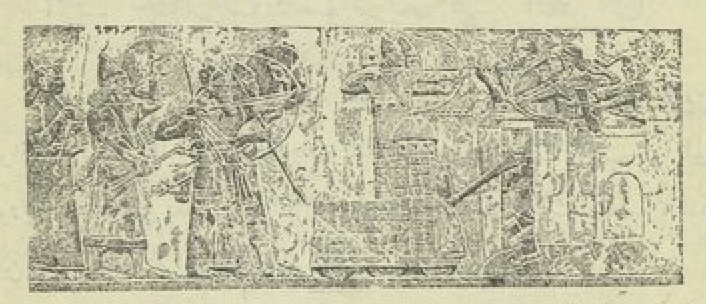
مر معنا ان سكان سورية جاءوا من بلاد العرب عن طريق العراق ؛ ولكن هذا لايعني ان جميع الذين خرجوا من بلاد العرب اتوا الى سورية . لقد بقي بعضهم في العراق واسسوا هنالك ممالك عظيمة ، منذ زمن قديم جداً ، ثم استعمروا ما حولهم .

اثر بابل الادبي — خضعت سورية في اول امرها لبابل خضوعاً اكتفى منه البابليون بالاسم وباخذ الجزية والضرائب خشباً ، وتركوا لسورية استقلالها الداخلي . بيد ان كثرة الاحتكاك ، وتردد التجار ووحدة الجنس السامية مكنت العادات البابلية في سوريا وخصوصاً في الدين والازياء وفي اثاث البيوت .

واشتد اثر بابل في شمالي سورية لقرب البلادين ؛ اما فلسطين فكانت دائماً اشد تأثراً بالمدنية المصرية للسبب نفسه .

الهول الاشوري — نشأ في شمالي بابل على دجلة مملكة اشور وهذه ما لبثت ان تغلبت عليها . ولم تطل سنة ٧٠٠ ق . م حتى استولت اشور على جميع اراضي الهلال الخصب ، ومنها سورية ؛ واستولت على مصر . وقد رووا عن الجيش الاشوري فظائع كثيرة ، واخبرونا كيف كانوا يفتحون البلاد

بالسيف ، ويرمون اهلها في النار ، ثم يبترون اموالهم باسواط عمالهم القساة . ولكن من الظلم ان نروي ذلك عن الاشوريين وحدهم .



(شكل ٢٢) الهول الاشوري ، جيش اشور يقتحم قلعة في شمالي سورية ٨٥٠ ق . م

الفتح الاشوري — لم ترضَ سورية عن حكم الاشوريين ؛ ولكن الجيش الاشوري تمكن ، بعد حروب طويلة ، من اخضاع اموري (دمشق) الباسلة وصور العنيدة ؛ ثم انقض سرجون الثاني ملك اشور على السامرة — عاصمة مملكة اسرائيل — فهدمها وشرد اهلها . ش (٢١) ثم لم تلبث ان زالت امبرطورية اشور ولم تترك في سورية الا ذكرى النار والحديد .

الكلدانيون البابليون — لم تكد تتنفس سورية الصُعَداء بعد زوال الهول الاشوري حتى امتلأت بالكلدانيين سكان بابل الذين ورثوا اشور في العراق ، وارادوا أن يخلفوها في

امبرطوريتها . انقض نبوخذ نصر على سورية وهدم مملكة يهوذا ودمر عاصمتها اورشليم (٥٨٦ ق.م)، ثم نفى اليهود الى عاصمته بابل — وعاصمة البابليين من قبل — واستعبدهم هنالك . وهكذا زالت المملكة العبرانية عن وجه الارض .

الفرس يحالفون السوريين — الى الشرق من العراق مقاطعة تدعى فارس ، يسكنها شعب غير سامي شجعه ضعف الدولة الكلدانية على غزو العراق وسورية ومصر . فلما سقطت بابل في يد كورش الزعيم الفارسي « ٥٣٨ ق.م » اطلق اليهود الذين سبى نبوخذ نصر اسلافهم ، وارجعهم الى فلسطين استرضاء لهم، وليكونوا له عونا في حروبه مع مصر واليونان .

رجع قسم من اليهود الى سورية بعادات جديدة يتكلمون اللغة الآرامية ويكتبونها بعد ان نسوا اكثر لغتهم . اما القسم الآخر فابى الرجوع ، لاستيطانه ما بين النهرين ، بعد ان بنى البيوت واسس المتاجر .

وجاء بعد كورش دارا الاول فنظم الامبرطورية ، وفضل مسالمة السوريين واحترام استقلالهم على النزاع معهم لانه رأى كيف اقضوا مضجع الاشوريين والكلدانيين ؛

ولانه ادرك اهمية الاسطول الفينيقي في حروبه المقبلة .



(شكل ٢٣) دارا الاول

وقد استفادت سورية من حكم الفرس تعبيد الطرق ، وازدهار التجارة ، وانتشار مراكز البريد ، واستتباب الامن .

ثم امر دارا ان يعاد حفر ترعة السويس حسب تخطيط الفينيقيين (بفتح ترعة تصل بين شمالي البحر الاحمر وبين البحر الابيض عن طريق النيل) .

وهكذا فتحت امام الفينيقيين اسواق جديدة ، فزاد ازدهار التجارة و كثرت اسباب الرفاهية .



١٠ـ اليونان ـ السلوقيون ٣٣٣ـ٦٤ق.م

الاسكندر المكدوني ودارا الثالث ــ ظلت بلادنا في جميع ادوار تاريخها القديم ميداناً للقتال ، لا تجف ارضها من دماء المصريين حتى تبتل بدماء الفرس . وها هي (٣٣٤ ق.م) يهاجمها الاسكندر المقدوني الكبير الذي نعرفه بلقبه «ذي القرنين» .



(شكل ٢٤) الاسكندر المكدوني

بعد ان تغلب هذا الفتى المقدوني على بلاد اليونان ، واستبد بملكهم ادار وجهه شطر الشرق ليقيم في آسية امبراطورية له : تلك كانت اول غزوة اوروبية في آسية . التقى الاسكندر بالفرس في آسية الصغرى فهزمهم ، ثم هاجمهم على مقربة من اسوس «قرب الاسكندرونة عام ٣٣٣ق . م» .

هنا وقف الفاتح العظيم بين فكرتين : استمراره في مطاردة جيش دارا، وترك السوريين خطراً عليه في البر والبحر، او مهاجمة بلادهم اولا ثم يرتد الى حرب دارا ؛ فتغلبت عليه الفكرة الثانية . لم تكن سورية لقمة سائغة له، فقد وقفت صور العنيدة في وجهه سبعة أشهر بفضل اسطولها الذي كان يمونها بالميرة والذخائر . ولما ضاقت بالاسكندر الحيل بنى بين الساحل



(شكل ٢٥) مدينة صور

وبين الجزيرة سداً مكنه من الوصول اليها واخضاعها . وفي هذه الاثناء كان قد وجه جيشاً آخر الى دمشق وفتحها ، فتم له بذلك سلبه السوريين حريتهم.

المملكة السورية — بعد عشر سنين توفي الاسكندر وخلّف امبراطورية عظيمة يتنازعها قواده ، فكان القسم الاسيوي ومنه سورية نصيب القائد سلوقس نيكاتور مؤسس المملكة السورية (٣٠١ ق.م) ؛ وفي هذا العهد عرف السوريون كيف يكونون امة واحدة . اراد السلوقيون صبغ البلاد بالصبغة اليونانية ؛ فبنوا المدن واطلقوا عليها أسماء يونانية نحو : اسكندرونه ، انطاكيه ، اللاذقيه ، سلوقيه . واستبدلوا بعض اسماء المدن الكبرى باسماء يونانية ايضاً فاصبحت بعلبك تدعى هليوبولس (مدينة الشمس) وصور تيروس . ثم شجعوا رعاياهم الاوروبيين على الاحتفاظ بجنسيتهم ، وعلى السكنى في مدن خاصة كل ما فيها من بناء ، وعادات ، ولغة ، يوناني وامتد هذا التأثير الى المدن الوطنية .

غير ان اليونانيين بحكم اختلاطهم بالسوريين اكتسبوا بعض عاداتهم ؛ حتى ان بعض الحكام السلوقيين تلقبوا بالقاب آرامية ، وتزيوا بالازياء الشرقية ، وملأوا بيوتهم بالمصنوعات السورية . ومع ان اللغة اليونانية كانت لغة العلماء والمتعلمين فان اللغة الآرامية ظلت لغة التخاطب .

وبالغ السلوقيون في فرض عاداتهم على السوريين فنفر السوريون منهم ، وكثرت ثوراتهم التي كان منها فتنة اليهود. باغت السلوقيون اورشليم في يوم سبت واعملوا السيف في اهلها والمعول في اسوارهـا . لكن اليهود عادوا اليها بعد مدة وجددوا بناء الهيكل فيها . (ش ٠٠)

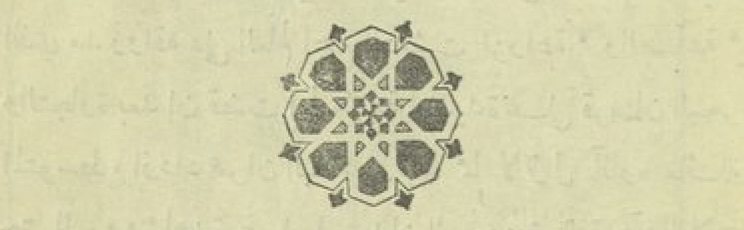
لو اتيح لك ان تزور مدينة انطاكيه لادهشك



(شكل ٢٦) منظر انطاكيه على العاصي

بناؤها ، ونظافة اسواقها ، ولا سيا مكتبتها التي كانت تضم ما يقارب ثلاثمائة الف مجلد ، وكانت تنافس بعلمائهـا اكبر مكاتب ذلك الزمن : كمكتبة الاسكندرية في مصر .

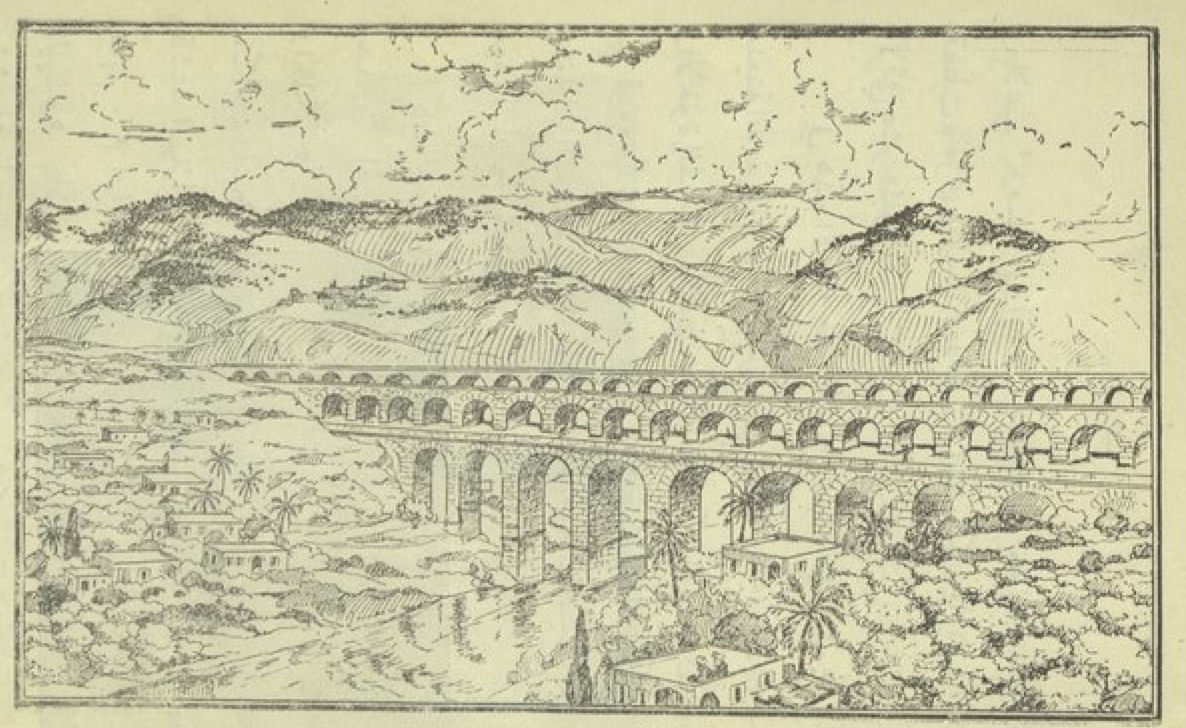
ولم تكن المدن السورية تغبط انطاكيه على سعتها ، وثروتها وعلمها فقط ، بل حسدتها أيضاً على متنزهها في دفنة (الحربيات اليوم) الذي كان السكان — ولا يزالون — يقصدونه للتمتع بمياهه المتدفقة وبمناظره الطبيعية الخلابة ؛ فيقضون الذ ساعات حياتهم في اللهو والاحتفال باعيادهم الوطنية والدينية ، وفي المباريات الرياضية على مختلف انواعها .



١١ـ الرومان وظهور المسيحية في سورية

حينما شرع الاسكندر الكبير في الزحف على الشرق ، كان البحر الابيض المتوسط يشهد قيام دولة جديدة تقوى فتهدد العالم . تلك هي رومية : عاصمة ايطالية ، التي سادت ، في مدة قرنين ، على جميع شواطئ البحر المتوسط ، واستطاع احد قوادها بومبيوس ان يقضي على دولة السلوقيين في سورية « ٦٤ ق . م » ويجعل سورية ولاية رومانية .

نزل الرومانيون في سورية فوجدوا حضارتها اعظم من حضارة بلادهم فاحلوها المحل الاول في امبراطوريتهم ، وجعلوها المقاطعة الاولى بعد رومية . وبفضل « السلم الروماني » الذي مد رواقه على العالم اجمع انتعشت الزراعة ، والصناعة ، والتجارة بعد ان قضت الحكومة الجديدة على قرصان البحر المتوسط . ازداد عمران البلاد ورقيها مما لا تزال آثاره ماثلة حتى اليوم وشاهدة على استعداد السوريين للتقدم والفلاح متى قام في بلادهم حكومة منظمة تعمل لخير المجموع ، وتسعى لترقية موارد البلاد اكثر من رغبتها في استنزاف دماء اهلها بكثرة الضرائب . فكان من جراء ذلك ان تعددت المدن واتسعت شوارعها ، وازدادت بناياتها الفخمة من معابد ،



(شكل ٢٧) قناة رومانيه

وملاعب ، ومسارح واتصلت جميع المدن بعضها ببعض كما اتصلت بالقرى والدساكر وقد بلغ عدد سكان بلادنا مايقارب الاثني عشر مليوناً .

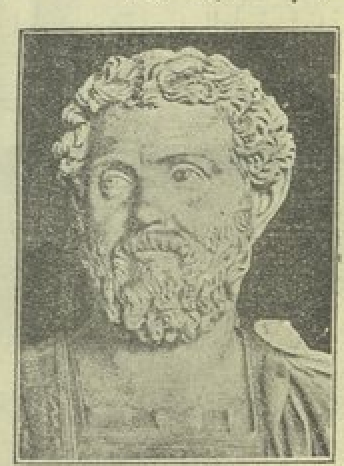
في هذه الاثناء ظهر المسيح ، سيدنا عيسى بن مريم ، في مدينة الناصرة ، وقام يبشر بدين جديد يدعو الى المحبة ، والاخوة الشاملة . فلاقت دعوته مقاومة شديدة بين اليهود بني قومه ولدى الرومانيين الوثنيين ، فاضطهدوه كلهم حتى رفعه الله اليه وعمره ٣٣ عاماً . واعتُبر ميلاد المسيح فيما بعد مبدأ التاريخ الغربي .

كان اليهود يعبدون آلهاً واحداً ، وكان حكامهم وثنيين فاشتد النزاع بينهم . ثم اراد اليهود ان يعيشوا بمعزل عن

(شكل ٢٨) المبكى = معبد سليمان

غيرهم فنفر الناس منهم . ولما تعـددت فتنهم سار تيطس الروماني الى اورشليم (٧٠ ب . م) وفتحها عَنوة ثم دمرها تدميراً . وزاد على من تقدمه ان شرد اليهود عن فلسطين وقتل منهم عدداً كبيراً .

الاباطرة السوريون — ظل السوريون في مقدمة شعوب الامبراطورية تمدناً ؛ فلم تجد رومية بدأ من منحهم



(شكل ٢٩) سبتيموس سفيروس موسس الاسرة السورية في رومية



(شكل ٣٠) كراكلا ثاني امبراطور سوري

« الحقوق الرومانية » فاصبح لهم حق في قيادة الجيش وادارة المقاطعات ، ثم ارتقى عرش رومية اسرة سورية ، رأسها

سبتموس سفيروس وخلفه عليه اربعة هم : كراكلا ، والاغابالوس ، والاسكندر الحمصي وفيليبس العربي ، وقد بقي المُلك فيهم اكثر من نصف قرن (٢٤٩ — ١٩٣ ق . م)

اثرهم في سورية — برّت اسرة سفيروس بلادها فمنحت السوريين امتيازات كثيرة ، واعفتهم من ضريبة الاراضي ، وجعلت بعض مدن سورية على مستوى واحد مع رومية نفسها . ثم ضاعفت بناء الجسور وتعبيد الطرق ، ولعل اعظم ما في اعمال افرادها العمرانية بناؤهم هيكل الشمس الفخم في مدينة بعلبك (هيليوبوليس) بدأه سبتيموس . ثم زخرفه بالنقوش البديعة وزينه بالاعمدة الرشيقة ابنه كراكلا فأتى معبداً ينافس بفخامة بَهْوه



(شكل ٣١) معبد الشمس بعلبك

وروائع هندسته اهم الابنية التي شادها اليونان والرومان في العالم واجملها . ثم استمر خلفاء كراكلا يزيدون في

تلك الاروقـة فبنى فيلبس العربي درج الرواق في الواجهة الامامية .

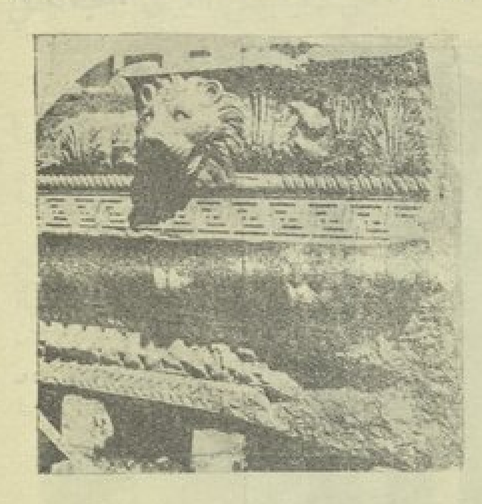


(شكل ٣٢)

الستة الاعمدة الباقية من ٥٤ عمودا في معبد الشمس في بعلبك

وكانت طريقتهم في البناء ان يشيدوا اولا الهياكل وينصبوا العمد ثم يعمدون الى نقشها وزخرفتها . وقد علمنا ذلك من رؤيتنا اجزاء كثيرة في الافاريز ومن قواعد الاصنام خالية من النقوش ؛ واقساماً كبيرة من جدران الاقبية السفلى بلا نحت .

ومما يشرّف اسم هذه الاسرة السورية — التي نفتخر بها — انها رفعت للعلم في بلادنا مناراً . فشيدت المدارس



(شكل ٣٣)

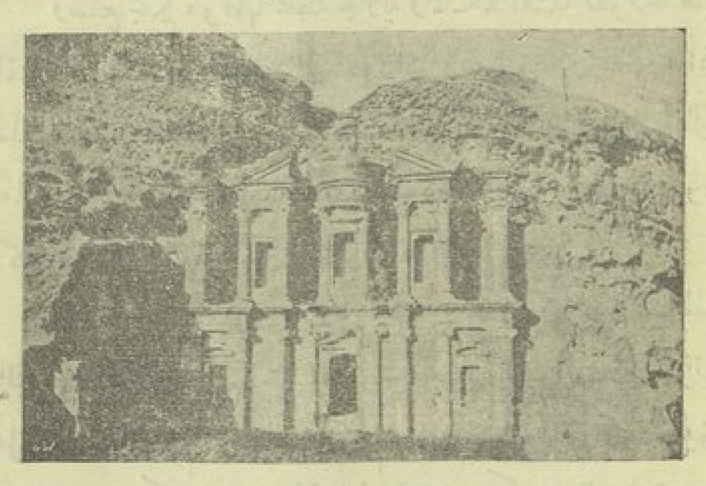
قطعة من افريز الاعمدة في معبد الشمس

الكثيرة التي منها : مدرسة الحقوق في بيروت ؛ فكانت تبعث بمتخرجيها الاعلام الى انحاء الامبراطورية . وما اشبه بيروت اليوم ببيروت البارحة ! وقد استمرت هذه النهضة المباركة حتى قضت الزلازل العديدة في القرن السادس على اكثر مدن الساحل ومنها بيروت وجامعتها

وكان للتدريس لغتان : اللاتينية (لغة الرومان) لدرس الحقوق ، واليونانية لسائر الفنون والفلسفة . اما لغة التخاطب

فظلت الارامية .

لكن حظ المرأة من هذه النهضة العلمية لم يكن باقل من حظ زوجها وقتئذ. أن الامبراطورة جوليا دوما، وليدة حمص، كانت ترأس مجالس العلم والادب وتعقدها في البلاط لتبحث مع اربابها في مختلف العلوم والفنون، حتى عرفت «بشجعة الفلسفة»



(شكل ٣٤) قصر في سلع منحوت من الجبال

١٢ — : سلع . المدينة المنحوتة في الصخر

في جنوبي فلسطين ، عند منتصف المسافة بين البحر الميت وخليج العقبة ، مقاطعة جبلية صخرية اسمها وادي موسى ، يقوم في وسطها مدينة عرفها العرب باسم سلع ، وسماها اليونان « بترا » اي الحجر .

وسلع بحكم موقعها محطة تجارية ومملكة امتد نفوذها منذ القرن الرابع قبل الميلاد الى حوران ودمشق . واعظم ما في سلع البيوت والمسارح والملاعب والهيا كل المنحوتة من الجبال . اما سكانها فكانوا انباطاً يتكلمون الارامية . وهم ساميون كالفينيقيين والعبرانيين والعرب .

لم يحصّن السلعيون بلادهم لوعورة مسالكها ، ولاشتغالهم بالتجارة اذ كان همهم اخذ المكوس وجباية الضرائب ، ينفقونها على عمارة بلادهم واسباب لهوهم . فلم ينتصف القرن السابق للميلاد حتى كنت ترى الانباط وقد احتكروا التجارة بين الشرق والغرب وجمعوا ثروة طائلة ، جعلت تغري غيرهم بهم وببلادهم . وظلت مملكتهم قائمة من غير ان تصل اليها يد اليونان ،

رغم مساعيهم العديدة .

الا ان الرومان ما لبثوا ان ازعجوا اولئك الانباط بحملاتهم المتوالية، وسلبوهم استقلالهم في القرن الاول للميلاد، ثم ضموا بلادهم الى مقاطعة حوران التي كانوا يطلقون عليها اسم « المقاطعة العربية ». في تلك الاثناء كثرت ميادين سباق الخيل، ومدرجات المسارح وشوارع الاعمدة في بصرى وعمان وجرش ومأدبة وغيرها من المدن التي لا يزال السياح يزورونها حباً في التفرج بآثارها القديمة، والتعمق في دراستها. لكن الانباط النشيطين ما فتئوا ان نقلوا جهودهم التجارية من الجنوب الى الشمال حيث اقاموا مدينة جديدة كان لها اثرها ونفوذها في تاريخ بلادنا، وما تلك المدينة سوى تدمر القائمة في وسط صحراء سورية .

١٣ – زنوبية والامبرطورية السورية

إن الانفة التي بعثها حكم الاسرة السورية في النفوس ظهرت جلية في امارة تدمر وحكامها . كان الساسانيون (حكام بلاد العجم) ينازعون، في مطلع القرن الثالث للميلاد، الرومان السيادة على بلادنا فنهض أذينة امير تدمر، وردهم عن بلاده. ثم التفت الى التنظيم الداخلي، ولكنه قُتل قبل ان يتم مشروعه عندئذ نهدت للامر بعده زوجه زنوبية التي تمثلت فيها النفسية السورية الوثابة والثقافة العلمية العامة.


(شكل ٣٥) زنوبيا

وكأن زنوبية رأت من العار ان لا تطرد الرومانيين من بلادها بعد ان طرد زوجها أذينةُ الساسانيين؛ فهاجمتهم واجلت جنودهم عن البلاد كلها؛ ثم استولت على مصر وآسية الصغرى وضمتهما الى سورية، وقدطمعت بما وراء ذلك: ان ترفع ابنها وهب اللات على عرش رومية نفسها؛ غير ان امنيتها هذه لم تتحقق اذ ان جيوش الرومانيين وهي تحت

امرة الامبراطور اورليـانوس انصبت على زمردة الصحراء (٢٧٠ م) وبددت آمالها .

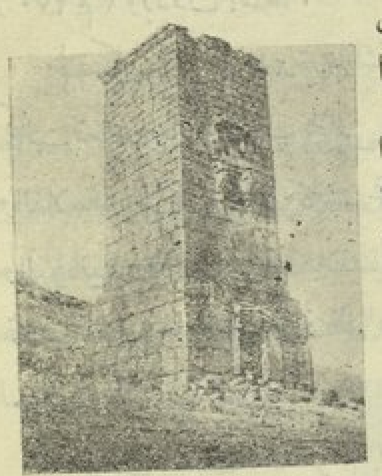
لم تكن زنوبية مدبرة ممالك وقائدة جيوش فحسب ، بل كانت تعقد للعلم والادب مجالس في قصرها وتقرب اليها الشعراء والفلاسفة ولا غرو فانها كانت تحسن من اللغات اربعاً : العربية واليونانية والآراميـة واللاتينية . وكانت زنوبية فوق ذلك فارسة تشجع ما عرف في زمانها من فنون الرياضـة وتترأس حفلات الالعاب العامة .



(شكل ٣٦) شارع الاعمدة في تدمر

زالت سلطـة تدمر ولكن الجيوش الرومانية لم تستطع ان تمحو آثار عظمتها الخالدة فاننا . لا نزال حتى اليوم نرى شارع الاعمدة وهيكل الشمس بما فيهما من الدقائق الفنية ، ثم نتجه نحو الجنوب الغربي لنزور القبور ، فاذا هي ابنية مربعة

ولكنها ذاهبـة في الفضاء ذهاباً بعيداً ؛ ندخلها منحدرين في دركٍ فاذا نحن امام نواويس (توابيت حجرية) نقرت لها اماكن في الجدران ، وامام كل ناووس تمثال صاحبه ، او صورة له ملونـة تلويناً لا يزال زاهياً قوياً كأن المصور قد فرغ منه بالامس.

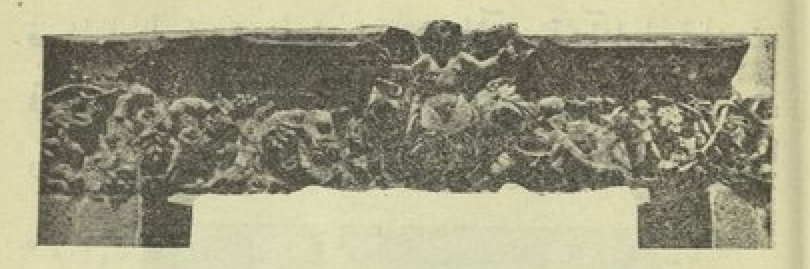


(شكل ٣٧) احد مدافن تدمر

بعدئذ نرتـد قليلا الى الجنوب لنشاهد المنـابع الكبريتية الحارة التي كانت الملكة والاشراف يستحمون فيها، والتي كانت مشافي لبعض المصابين بامراض جلدية مختلفة.

فلا يجب ان نعجب من هذا العمران فان مركز تدمر التجاري قد ساعد ابناءها على توفير الاموال ، فانفقوها فيما رأيت عندهم من اوجه العمران الفني والعلمي ؛ وما ذلك الا بفضل اجتهاد السوريين وجدهم

***



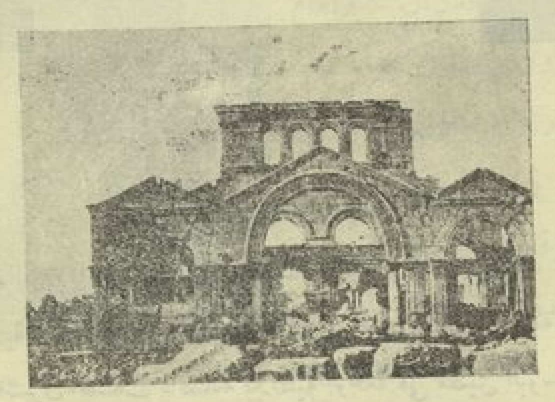
١٤ـ الروم في سورية

= الضعف بعد القوة =

يمتاز القرن الميلادى الرابع بانتشار الديانـة المسيحية ، وبانقسام الامبرطورية الرومانية الى قسمين : قسم في الغرب ظلت عاصمته رومية ، وقسم في الشرق اصبحت عاصمته بيزنطية الواقعة على مضيق البوسفور . ثم جعل الامبراطور البيزنطي ، قسطنطين الاول ، الديانـة المسيحية مذهب الدولة ؛ وسمى بيزنطية باسمه « القسطنطينية » ، وهي التي سماها الاتراك استانبول . وكان اباطرة بيزنطية يونانيين لا رومانيين ، فدعاهم العرب « الروم » .

اما حظ سورية من الروم فكان سيئاً جداً . لقـد جزأوا البلاد اجزاء ستة ؛ وابعدوا السوريين عن الجيش ؛ واستبدلوا الجيش النظامي بحاميات على الحدود . فنفر السكان منهم نفوراً تمثل في النزاع الديني ، وفي رجوع السوريين الى الاخذ باساليب

فن المعمار الوطني ، والى احياء اللغة الآرامية وآدابها . فظهرت في ميدان العلم والادب مدن عديدة اهمها : غزة في الجنوب ، والرُها في الشمال . وبقيت آثار الكنائس حتى يومنا موضع



(شكل ٣٨) « قلعة سمعان » ترى الفن السوري المسيحي

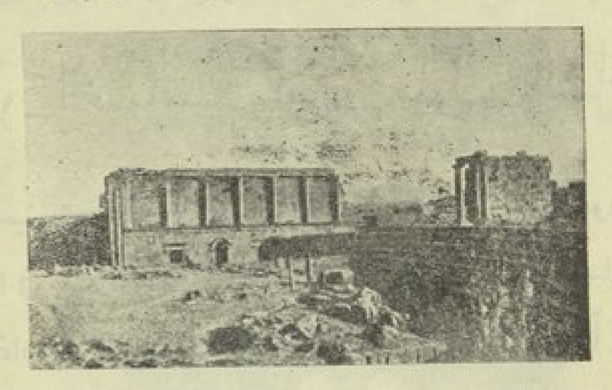
دهشة المنقبين ، ودليلا على انها اصل لفن البناء في اوربة مدة القرون الوسطى .

١٥ ـ الغساسنة العرب ملوك الشام

حينما شعر الروم بضعف الحاميات ، على حدود سورية ، اقاموا في حوران امارة عربية نصرانية – من بني غسان – لصد غارات الفرس الساسانيين ، الذين اقاموا ، هم ايضاً ، على حدودهم امارة عربيـة في الحيرة شرقي الفرات تعرف بامارة المَناذِرة . وقد اتصل النزاع بين المناذرة والغساسنة من اجل ذلك . وفي سنة ٥٤٠ اكتسح كسرى انوشروان سورية مقتحما منبج وحلب وانطاكية . وهكذا استمرت الحرب بين الروم والساسانيين ما يزيد عن نصف قرن .

اخذ الغساسنة بحظ من مدنية الروم ، واشتهر بلاطهم ايام ملوكهم : آل جَفْنَةَ ، بالترف وبتشجيع الادب . وظل اتصالهم بشبة جزيرة العرب عن طريق التجارة واللغـة عظيما . وكان حسان بن ثابت – شاعر الرسول فيما بعد – يتردد بين بَلاَطَيْ الحيرة وجِلّق (احد مراكز ملوك غسان في حوران) ويمدح ملوكهما

وفي اثناء ذلك كان في الحجاز من بلاد العرب نهضة دينية



(شكل ٣٩)

بعض خرائب بصرى والى اليمين مدرج ملعبها .

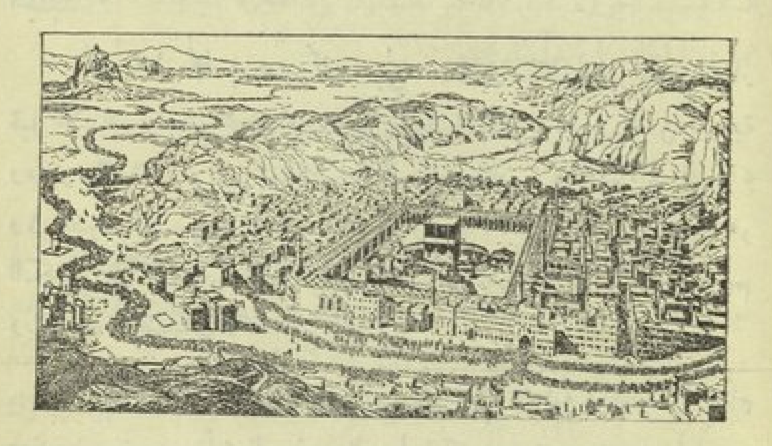
قومية تعمل على جمع شتات العرب وجملهم امة واحدة . وما هذه النهضة سوى ظهور الاسلام على يد الرسول الاعظم محمد بن عبد الله .



القسم الثاني

سورية في العصور الوسطى

١٦ – العرب والدعوة الاسلامية



(شكل ٤٠) المسجد الحرام في مكة

لقد عرفنا شبه جزيرة العرب حينما كنا ندرس احوال الموجات السامية المتدفقة منها ، وسنرجع الآن لندرس احوال الباقين فيها ، قبل ان نعرض للفتح العربي .

عاش اكثر العرب في شبه جزيرتهم بدواً رُحَّلاً ، لم يطمع فاتح فيهم

لعصوبة اختراق بلادهم وانجاعتهم ، ولم يختلطوا بالعالم ؛ الا ما كان من تجارهم ، الذين كانوا يترددون بالبضائع بين فارس ومصر عن طريق سورية او عن طريق الشواطيء الحجازية اليمانية .

الحجاز – يقع الحجاز في الشمال الشرقي من البحر الاحمر وهو اهم ما يستحق عنايتنا الآن من بين جميع اقسام شبه الجزيرة ، وذلك لظهور الاسلام فيه وتعاون مدنه الثلاث : مكة ، ويثرب ، والطائف على نشر الدين الجديد .

مكة محطة تجارية ومركز ديني – كانت مكة اشهر مدن الحجاز قبل الاسلام وأعظم محطة تجارية على طريق القوافل ، ما بين اليمن وسورية ومصر والعراق . وكان لسكانها في السنة رحلتان : في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى سورية ؛ هذا فضلا عن وجود « البيت العتيق » فيها وهو الكعبة التي كان العرب كافة يحجون اليها من جميع انحاء شبه جزيرتهم ويقدمون الاضحيات لاصنامهم فيها .

ظهور الاسلام – وفيما العرب في غمرة الجاهلية ، يعبدون الاصنام ويغزون بعضهم بعضاً ، ظهر فيهم الرسول الكريم ، محمد بن عبد الله ، وهو من بني هاشم اشرف القرشيين .

نشأة محمد – نشأ سيدنا محمد يتيما وشب فقيراً ولكنه كان في صغره مثال الوداعة في الاخلاق ، وفي شبابه عنوان الامانة في المعاملة . ولما بلغ الاربعين من عمره صدع برسالة ربه ودعا قومه الى الاسلام . فناله اذى كثير . ولكن عزمه لم يلن ، وقوته لم تخر . ولما تحقق لديه اصرار اهل

مكة على الكفر والايقاع به هاجر الى يثرب — شمال مكة — وهي التي سميت فيما بعد « مدينة الرسول » ثم اختصر اسمها فاصبح « المدينة »

ولما وصل محمد عليه السلام الى « المدينة » خرج السكان باجمعهم يستقبلونه ، وامتلأت المدينة فرحاً وسروراً ، حتى ان الاطفال كانوا يسيرون في الاسواق فرحين يقولون : « قد جاء محمد ، قد جاء » . ولقي المهاجرون كل إكرام واعتناء . ولم يمض على الهجرة عشر سنين حتى اصبح محمد عليه السلام سيد الجزيرة كلها . فاتخذ المسلمون يوم الهجرة فيما بعد (ايام الخليفة عمر بن الخطاب) مبدأ لتاريخهم .

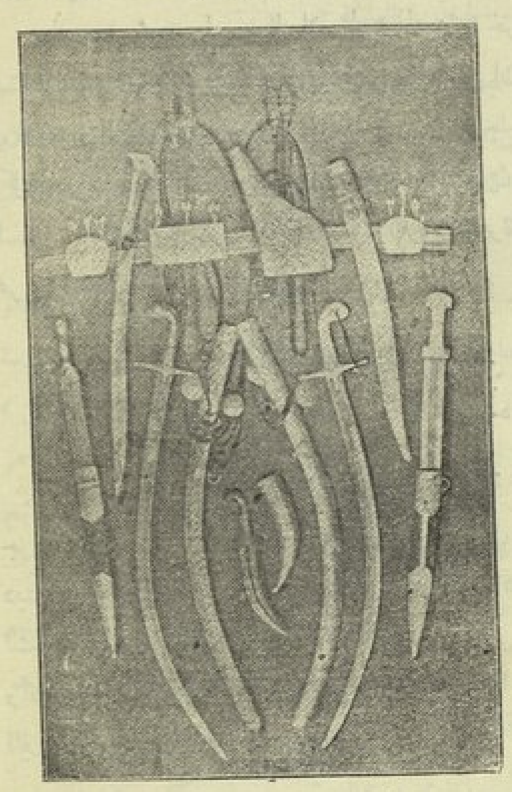
١٧ — العرب في سوريه

١٤ — ٩٢٢ هـ ٦٣٥ — ١٥١٦ م

كان الفتح العربي احدى تلك الموجات السامية ، التي خرجت من شبه جزيرة العرب . ولكنها تختلف عن كل ما سبقها في انها حملت الى العالم معها ديناً ولغة ، وان اثرها كان ابعد واعم . ولقد اراد العرب ان يفتحوا العالم لنشر الاسلام ، فجهزوا جيشاً جاء الى سورية والتقى الروم عند نهر اليرموك وانتصر عليهم بقيادة خالد بن الوليد وابي عبيدة الجراح ، وبعد معركة اليرموك (١٤ هـ) اصبحت سورية ولاية عربية .

سوريه ايام الفتح — لم تكن نتيجة الفتح ان استبدلت سورية فاتحاً بآخر . كلا ، بل ان السوريين عرفوا في العرب اخواناً لهم في الجنس واللغة ، أوليسوا جميعهم ساميين ؟

ولقد ظهر من موقف العرب في المناوشات الاولى مع الروم انهم لم يكونوا يقصدون نيل السوريين باذى ، بل كانوا يعملون على طرد الاجنبي من البلاد وتخليص السكان من ظلمه وتعصبه ودليلنا على ذلك انضمام السوريين الى العرب ، ومساعدتهم على حرب الروم .



(شكل ٦١) اسلحة عربية قديمة

ظلت حالة سورية الاجتماعية في دور الفتح كما كانت عليه قبله ، وبقيت جيوش الفتح بعيدة عن الاهالي فلم تخالط بهم في سكنى او تزواج او عمل ، وذلك حباً بالانصراف الى اعمال

الفتح ولمحافظتهم على الحماسة الحربيـة كما اوصى سيدنا عمر بن الخطاب . وقد اقام العرب في اجنادهم (معسكراتهم) بعيدين عن الحضر . ثم بدأت الجاليات العربيـة تتوافد على البلاد وتسكن في فساطيط في ظواهر المدن لتغذي جيش الفتح عند الحاجة بالرجال .

هذا في الداخل اما على الساحل فقد وجد معاوية بعد الفتح ان بعض المدن خالية من السكان بسبب هجر الروم لها ؛ فأتى بجوال من فارس والعراق واسكنها تلك المدن . وهكذا اصبح سكان سورية في زمن الفتح طبقات ثلاثة :

المسلمون العرب — جاء هؤلاء مع الجيش قواداً وجنوداً او مهاجرين يؤلفون جوالي — قوم يسكنون في بلاد غريبة معاً — يتناولون من بيت المال (خزانة الدولة) مبالغ تتناسب مع نسبهم وحسبهم ؛ فنصيب المنتسب الى آل بيت الرسول اعظم من نصيب غيره ، ونصيب الفارس اكبر من نصيب الراجل ، وحظ الذي هاجر مع النبي عليـه السلام اعظم من حظ الذي لم يهاجر .

المسلمون من غير العرب — وجـد السوريون ان العرب

ارحم من الروم ؛ لا يضطهدون من ليس من دينهم ، ولا يرهقون السكان بالضراب ولا يتشددون في الرق — ان تشتري انساناً او تأسره في الحرب فيصبح عبداً لك — ثم التفتوا فوجدوا ان المسلمين لهم امتيازات يتساوون فيها ، لا فرق بين الامير والفارس ، ولا بين الغني والفقير عملاً بقوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » فأخذ بعضهم يدخل في الاسلام افواجاً .

غير المسلمين — لم يُكره المسلمون احداً على اعتناق الاسلام ولذلك بقي كثير من سكان سورية ، في اول امرهم على النصرانية ، حرص العرب على المحافظة عليهم وحمايتهم ، وسموهم « اهل الذمة » اي اهل الامان والعهد . وقد ترك المسلمون لهؤلاء الحرية الدينية التامة ، ومنحوهم حقوقاً دنيوية واسعة ، ولكنهم كانوا يأخذوا منهم جزية صغيرة جداً . فكان الغني يدفع اربعة دنانير في العام (٢٠٠ قرش ذهبا) والمتوسط الحال دينارين ، والفقير ديناراً واحداً . واُعفي المرضى والعاطلون من العمل ورجال الدين والنساء من هذه الضريبة .

١٨ – بنو امية في الشام

المملكة العربية

١ – دور التأسيس – من معاوية الاول الى عبد الملك بن مروان

السابقون من بني امية – بنو امية قرشيون كاقربائهم من بني هاشم ؛ أتى منهم في جيش الفتح يزيد بن ابي سفيان وأخوه معاوية وقد أبلى الاخوان بلاء حسناً في فتح المدن الساحلية كبيروت وصور وقيساريه (بلدة جنوبي حيفا) ثم ولّى الخليفة عمر بن الخطاب يزيد على البلاد السورية كلها ، وخلفه اخوه معاوية من بعده .

معاوية حاكم سورية – كان معاوية يحلم بالمُلك منذ كان في الحجاز ، فما كاد يتولى سورية حتى شرع يعمل على التحبب الى الوطنيين واستمالتهم بتعيينهم في المناصب واتخاذ المعاونين منهم . هذا ولم يغفل عن التقرب الى العرب ايضاً بوسائل شتى وخصوصا بالمال . وفيما هو جاد في سياسته هذه حدث في الحجاز فتن (سنحدثك عنها في الجزء التالي بالتفصيل) قتل فيها

خليفتان : عثمان بن عفان الاموي ، وعلي بن ابي طالب الهاشمي رضي الله عنهما . فانتهز معاوية الفرصة واعلن نفسه خليفة في الشام ؛ فانتقلت الخلافة من المدينة في الحجاز الى دمشق في سورية .

معاوية مؤسس الخلافة الاموية — كان اول ما عمله معاوية بعد مبايعة المسلمين له بالخلافة ، ان التفت الى تثبيت مركزه ومركز اسرته في الملك ، فاتخذ من السوريين جيشاً للدفاع عن الخلافة كما أنه اسس اسطولا لمهاجمة الروم في بلادهم ولفتح القسطنطينية عاصمتهم . ولما أمن مناوأة الاحزاب المعادية ، جعل ابنه يزيد ولياً للعهد : ليرث الملك بعده . وهكذا انقضى عهد الخلفاء الراشدين المنتخَبين : ابو بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم وبدأ عصر الملك الوراثي .

الفرع المرواني — خلف يزيدُ اباه معاوية وكان ينقصه كثير من سياسة ابيه ودهائه فقامت الفتن عليه في الحجاز والعراق ثم بويع بعده للخلافة ابنه معاوية الثاني وكان صغيراً وضعيفاً فآثر التنازل لسواه . عندها تعددت الاحزاب وكثر المطالبون بالخلافة ولكن مروان بن الحكم ، شيخ بني اميه وقتئذ

استطاع ان يحـارب منافسيه وينتصر عليهم في مرج راهط (شرق دمشق) وينقل الخلافه من الفرع السفياني الاموي الى الفرع المرواني الاموي .

١٩ – عصر سورية الذهبي

ب – دور العظمة . الحياة الاجتماعية والعمرانية والفكرية

من عبد الملك الى هشام

يمتد دور العظمة نصف قرن بلغ فيه العرب عامة والسوريون خاصة اعلى درجات القوة والفلاح ؛ فتمتعوا بالنفوذ المطلق في امبرطورية امتدت مابين الهند شرقاً والمحيط الاتلنطيكي غرباً (خريطة ٢) ويعود الفضل في ذلك الاتساع الى عبدالملك وابنه الوليد ومعاونيهما من رجال الادارة والقيادة .

الحياة الاجتماعية — ماكاد العرب يستقرون تحت سماء بلادنا الجميلة حتى استهواهم هواؤها واغراهم طيب مناخها في هجر الاجناد « المعسكرات » في دابق « الشمال » والجابية «حوران» وعمواس «فلسطين» ؛ وجعلوا يستطيبون السكنى فى المدن ويفضلونها على الارياف ؛ فنشأ من ذلك اسباب الترف والنعيم وشرعوا يتطاولون في البناء ويستكثرون من العبيد والموالي ، يستخدمونهم في اراضيهم وقضاء حاجاتهم .

الامبراطورية العربية
في أكبر اتساعها

مملكة الروم

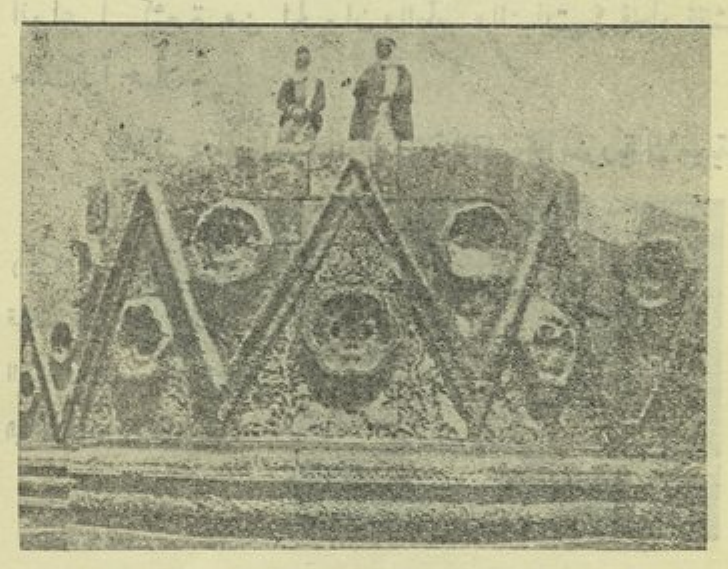
الإفرنج
الأندلس
المغرب
البحر الأبيض المتوسط
البحر الأسود
دولة الروم
الدولة الخزرية
سوريا
جزيرة العرب
بلاد فارس
بلاد ما وراء النهر
السند
البحر الأحمر
بحر العرب
المحيط الهندي

(خريطة ٢)

هذا ما كان من أثر سورية في العرب ، اما هم فعرّبوها ، وفتحوا امام اهلها الدخول في دين الله (الاسلام) وذلك بجعلهم لغتهم لغة الحكومة الرسمية ، وسكهم منذ ايام عبد الملك النقودَ العربية ، وتسامحهم الديني مما جعل السوريين يصطبغون بلغة الفاتحين ودينهم ، وكان ذلك بالتدريج . فازداد بذلك عدد المسلمين في المدن الكبرى ولا سيما الداخلية منها حتى ان دمشق وحدها اصبحت تضم اكثر من ٢٠٠،٠٠٠ نسمة .

وكان من مظاهر الحياة العربية ان انتقلت العصبية « العداوة بين القبائل » الى بلادنا . نزل في سورية منذ ايام الفتح قوم من عرب الشمال (شمالي شبه الجزيرة) يُعرفون في التاريخ باسم القَيْسيّة ، وقوم من عرب الجنوب يعرفون باسم اليمنية ، وكان هؤلاء اعداء منذ ايام الجاهلية . ثم جاء الاسلام فقضى على العصبية . ولكن لما خرجت القبائل الى البلدان المجاورة وحدث النزاع والفتن ، عادت العصبية الى ما كانت عليه . وقد نشبت بعد موت يزيد بن معاوية ، وظلت ناشبة حتى كانت احد الاسباب التي قضت على الخلافة الاموية كما ستعلم في حينه .

الرقي والعمران — بعد ان ثبتت الخلافة الاموية، واستتب الامن بدأت مظاهر الرقي والعمران تتجلى في اعمال الامويين. فبُنِيَت الاقنية واصلحت طرق الري التي قضى عليها اهمال الحكم البيزنطي. وما ان اتسعت الاعمال الزراعية والتجارية حتى نمت ثروة البلاد فانشئت الدور والقصور



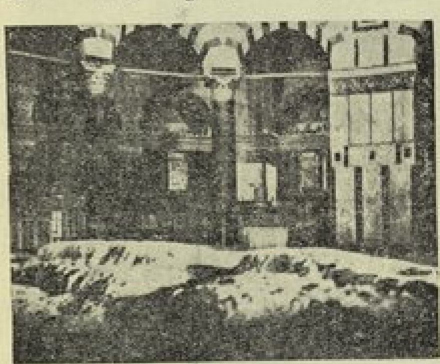
(شكل ٤٢) قصر المشتى من بناء الوليد الثاني الاموي (شرقي الاردن)

واتسعت المزارع وطابت الحياة في ظل الحكم العربي الاموي. اما القصور العديدة التي اقامها الامويون والاشراف في المدن

والبادية فقد درست كلها الا « قصر المشتى » الذي يقوم على حدود البادية على بعد ٢٥ كيلو متراً جنوبي عَمان .

كان هذا القصر في مكان قفر لاماء فيه ولا شجر ؛ ومع ذلك فقد كان ذا نقوش جميلة جداً إذ جعلوها على شكل مثلثات كبيرة ثم ملأوها بالزخارف البديعة التي تمثل انواعاً كثيرة من الحيوان والطير والنبات ، فجاء نقشه مبتكراً جميلاً .

وهناك مظهر آخر لهذه النهضة الفنية في سورية الاموية :



(شكل ٤٣) داخل مسجد قبة الصخرة ؛ وفي المقدمة الصخرة الشريفة التي كان اليها الاسراء ، ومنها المعراج .

المساجد الفخمة التي شيدها الخلفاء في القدس ودمشق وقد أتت دليلا واضحاً على مبلغ عناية المسلمين في تجميل مساجدهم . ولا عجب فبيوت العبادة عنوان اصحابها ومظهر فخرهم ورقيهم .

الحياة الفكرية — ظل للشعر والخطابة في هـذا العصر اتصال وثيق بحياة الشعب وحياة الدولة .

اما الخطابة فلعلاقتها بالدعودة والفتح ، واما الشعر فلاتصاله في السياسة من حيث هجو الخصوم ؛ فكان الامويون جد حريصين على ان يكونوا هم انفسهم خطباء بعيدين عن اللحن الممقوت .



نقود عبد الملك

٢٠ — الدعوة الهاشمية

دور الضعف وانقضاء الحكم الاموي

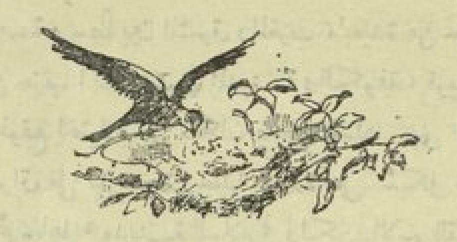
بدء الضعف — عُرف عمر بن عبد العزيز بنقاء النفس، وطيبة القلب والتقوى؛ فلم يشأ ان ينهج نهج الشدة في الحكم، وفي قمع الفتن؛ بل أحب ان يرى المسلمين كلهم سواء: العرب منهم وغير العرب؛ فكان من جراء ذلك ان رفعت الاحزاب رؤوسها وبدأت تقاوم الامويين وسياستهم العربيـة. وما ان تُوفي عمر (١٠٢ هـ — ٧٢٠ م) حتى اصبحت تلك المقاومة تهدد الامبرطورية الاموية بالسقوط.

الدعوة الهاشمية — اخذ بنو هاشم منذ زمن بعيد «يدعون الناس الى الرضى من آل محمد»، والى القبول بان يتولى الخلافة رجل من اسرة محمد عليه السلام. ثم انشأوا مراكز للدعاية، وخصوصاً في العراق والبلدان التي تقع شرقي العراق، حيث يكثر اشياعهم وانصارهم؛ وحيث السكان كلهم فرس أو أتراك، ناقمون على سياسة بني امية العربية.

مروان الثاني — كان مروان الثاني آخر الخلفاء الامويين، حتى انـه ليقاس بمعاوية وعبد الملك. ولكنه اتى والفتن

كثيرة ؛ والفوضى منتشرة في كل مكان ؛ والنقمة على بني امية في ازدياد ؛ فلم يستطع ان يحتفظ بملك اجداده طويلاً .

معركة الزاب — لما بلغ ضعف بني امية اشده ، وبلغت قوة الدعوة الهاشمية اشدها ، سار ابو مسلم الخراساني — وهو ساعد الهاشميين الايمن في دعوتهم — على رأس جيش من اقصى الشرق متجهاً الى الغرب . كان هذا الجيش يستولي على البلدان بلداً بلداً ، ويطرد منها عمّال بني امية ، ثم يقتل انصارهم . ولما بلغ العراق التقى بجيش الامويين على الزاب الاكبر — احد روافد دجلة — فتشتت الجيش الاموي واصبحت الخلافة للعباسيين واصبحت سورية مقاطعة عباسية ، ونزلت بذلك عن مركزها العظيم الذي احتفظت به قرناً كاملاً .



٢١ _ الخلافة العباسية في بغداد

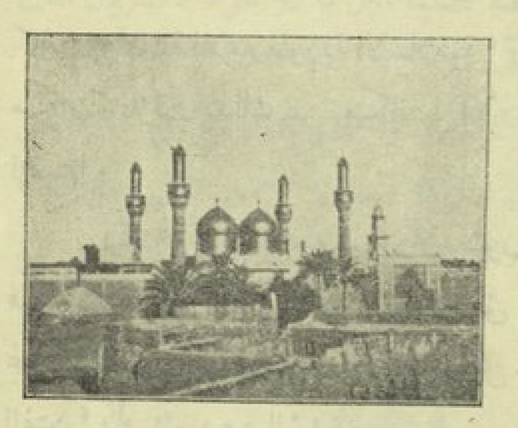
عصر العباسيين الذهبي – النفوذ الفارسي في العراق وسورية

عواصم الاسلام – كانت مكة عاصمة الاسلام الاولى : فيها بدأ النبي صلى الله عليه وسلم الدعوة . ثم هاجر الى المدينة ، فانتقلت العاصمة من الجنوب الى الشمال . ولما ذر الخلاف بين علي ومعاوية ، انتقل علي كرم الله وجهه الى الكوفة – في جنوبي العراق – واستقر معاويـة في دمشق ، وهكذا تحركت العاصمة الى الشمال ايضاً . بعدئذ جاء العباسيون فاستقروا حيناً في الكوفـة ، ثم في الأنبار والهاشمية على الفرات ، ثم بنوا بغداد ، فكانت العاصمة دائماً تتحرك نحو الشمال .

« مدينة السلام » مدورة – اراد المنصور (الخليفة العباسي الثاني) ان يتخذ عاصمة وسطاً بين المشرق والمغرب ، بعيدة عن حزب الامويين في الشام ، وعن حزب آل البيت في المدينـة والكوفة ، قريبـة من اشياع العباسيين ، فوقع اختياره على مكان يدعى بغداد . بنى المنصور عاصمته في وسط العراق على نهر دجلة وجعلها مدورة على شكل مدينـة سامال الارامية ثم سماها « مدينـة السلام » ولكن الاسم القديم تغلب على الاسم الجديد وعاد الناس يسمون عاصمة العباسيين بغداد .

الحضارة الفارسية في بغداد – لقـد علمت ان الفرس هم الذين

ساعدوا بني العباس في حرب الامويين ، ثم رفعوهم على عرش الامبرطورية الاسلاميـة . أراد العباسيون ان يكافئوا الفرس فجعلوا منهم الوزراء والكتاب والقواد فكثر العنصر الفارسي في البلاد العربيـة عموماً وفي العراق خاصة .



(شكل ٤٤)
مسجد من مساجد بغداد . يريك تأثير الفن الفارسي في فن العباسيين

أتى الفرس الى البلاد العربية بعاداتهم وأزيائهم فأشاعوها في بغداد . وقلد الناس سكان العاصمة فشاعت حضارة الفرس في البـلاد الاسلامية كلها . وقد بلغ نفوذ الفرس أشده في زمن هرون الرشيد «١٧٠ – ١٩٣ هـ – ٨٠٩ م» حينما استطاع البرامكة – وزراء الرشيد – ان يستبدوا بامور الدولة ويرفعوا من شأن الفرس ويساعدوهم . فنقم عليهم العرب ، ونكبهم الرشيد نكبة لا يزال الناس يتحدثون بها الى الان .

وقد شهدت بغداد في زمن هرون الرشيد ازهى عصورها ؛ اذ انصبت فيها ثروة الامبرطورية ورحل اليها العلماء والادباء والشعراء من كل مكان ،

واصبحت مقصد طلاب العلم ، ورُوَّاد اللهو ، وغايـة السائح ، ومحط رحال التاجر .

نزول سورية عن مكانتها السابقة — سوريـة عادت الآن مقاطعة بسيطة يرسل العباسيون اليها الولاة ، بعـد ان كانت عاصمة للامبرطورية الاسلامية ، ترسل الولاة الى كل مكان . فنزلت بذلك عن مكانتها الاولى السامية ، وقلت اهميتها .

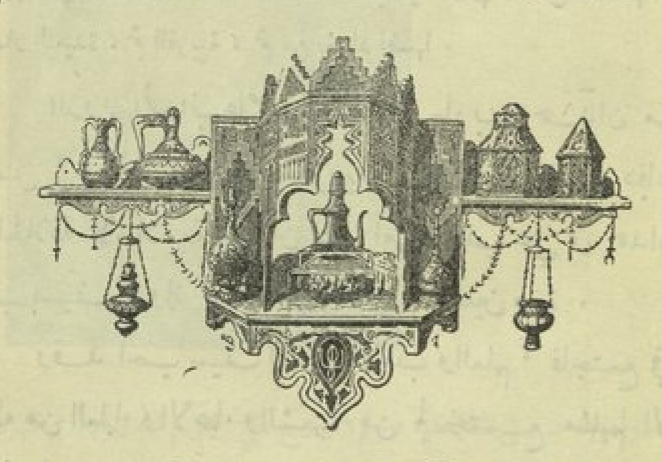
وقـد جرب السوريون ان يثوروا على العباسيين ؛ فكانت فتن في شمال لبنان ، وفي دمشق ، وفي فلسطـين ؛ غير ان العباسيين كانوا يتمكنون في كل مرة من اخماد هذه الفتن ، ولو بشيء من الشدة .

العلم والفلسفة في بغداد وسورية — لا شك في أن أكبر خدمة قدمها العباسيون للعرب والاسلام خاصة ، وللعالم عامة كانت في تشجيعهم الكثير على ترجمة الكتب القديمة في العلم والفلسفة . لقد بدأ العباسيون منذ ايام المنصور « ١٣٦-١٥٨ هـ ٧٥٤-٧٧٥م » بالبحث عن كتب الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية، ولكن هذه الحركة العلمية بلغت أوجها في ايام الخليفة عبد الله المأمون « ١٩٨-٢١٨ هـ ٨١٣-٨٣٣ م » ابن هرون الرشيد .

كانت اكثر الكتب التي ترجمها العرب يونانية . ولكن

العرب المسلمين انفسهم لم يكونوا يعرفون اللغة اليونانية ، فعهدوا بترجمة هذه الكتب الى السريان «النصارى» الذين كانوا يعرفون تلك اللغـة . وهكذا تبدلت سورية بعظمتها السياسية الغابرة عظمة علمية . إن اكثر هؤلاء السريان الذين ترجموا كتب الفلسفة سوريون .

اما اشهر مراكز العلم والتعليم الفلسفي في ذلك الحين فقد كانت نصيبين والرُّها وحرّان ، من شمال سورية ؛ ولكن بعض هؤلاء العلماء كانوا من بعلبك وصور وبيروت ايضاً .



(شكل ٤٥) الصناعات الاسلامية

٢٢ـ ضعف الخلافة العباسية

توالي الحكومات على سورية

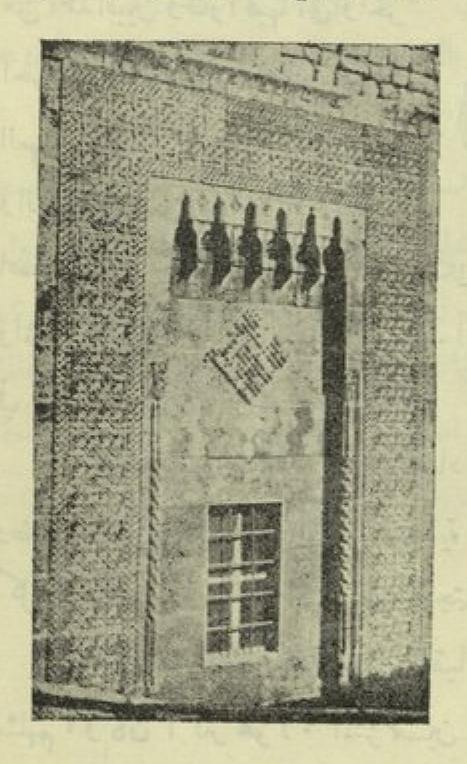
الاتراك – بعد تلاشي النفوذ الفارسي احتاج الخليفة المعتصم – احد ابناء الرشيد – الى جند ، واتفق مجيء بعض القبائل التركيـة من اواسط آسية فاتخذ منهم جنداً في جيشه. ولكن بعد ان أصبح هؤلاء قواداً وامراء ووزراء تغلبوا على العنصر العربي ، واستبدوا بامور الدولة ، ثم كانوا من أهم الاسباب التي أدت الى ضعف الخلافـة العباسية والى تقلص سلطتها عن الامصار البعيدة ، ثم القريبة ، ثم عن بغداد نفسها .

الدولة الحمدانية عاصمتها حلب – جاء بنو حمـدان من الموصل ، ونزلوا في شمالي سورية ، يحاربون الروم دفاعاً عن الخلافة الاسلامية . وكان اشهر امراء حلب علي بن حمدان الملقب بسيف الدولة ، والذي غزا الروم اربعين مرة .

وقـد احب سيف الدولة الادب والعلم ، فاجتمع في بلاطه من العلماء والادباء والشعراء من لم يجتمـع مثلهم الا ببلاط هارون الرشيد في بغداد .

وعاشت الدولة الحمدانية في حلب نحو سبعين عاماً (٣٧ — ٣٩٤، ٩٤٤ — ١٠٠٣).

الدولة الفاطمية تفتح سورية — ينتمي الفاطميون الى فاطمة الزهراء.



(شكل ٤٦)

نقوش من العصر الحمداني

ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج علي كرّم الله وجهه. ظهرت دولتهم في شمالي افريقية الغربي، ثم أتوا الى مصر وفتحوها، وبنوا القاهرة

ثم شيدوا فيها الجامع الازهر (٣٥٤ هـ ٩٦٥ م) أقدم جامعة علمية دينية في العالم كله ، واعظم جامعة اسلامية اليوم .

واخذ الفاطميون سورية من الحمدانيين وظلوا فيها الى اواخر الحروب الصليبية . وفي هذا العهد ، نشأ المذهب الدرزي وانتشر في سورية . ثم اعتصم اصحابه في جبالهم الى اليوم .

(شكل ٤٥) اناء من مصر الفاطميين

واشتهر الدروز (الذين سندعوهم منذ الآن « بني معروف ») في تاريخ سورية الحديث شهرة ذائعة .

فساد الرحالة الاجتماعية — ان فساد الاحوال السياسية ، وضعف الحكومات المتوالية على سورية ، وذهاب قوة الخلافة كل هذه ادت الى فساد الاحوال الاجتماعية .

فشا الجهل بين العامة فكثر انقيادهم لِمُتَزَعّمين جهلاء مثلهم ، وكان اكثر هؤلاء المتزعمين (جماعة يريدون ان يعيشوا) على حد تعبيرنا اليوم ، فكانوا يتظاهرون بالدين والتقوى والعلم والفضل ، وهم خلو من هذه كلها .

وتكالب الناس في هـذا العصر — عصر الشاعر الفيلسوف ابي العلاء المعري — على جمع المال من كل وجه — حَسُنَ او سَاءَ — . فنرى المعري يقول : « اني سئمت من العيش بين اهل زمني ، لان الامراء يأمرون بغير ما يفيـد الناس . لقد ظلموا الشعب ، مع ان الشعب استأجرهم ليخدموه » .

السلاجقة — السلاجقة قبائل تركية نزحت من اواسط آسية الى العراق ، وخلصوا الخلافة من استبداد البويهيين . ثم انتقل بعضهم الى سورية ، وحاربوا الروم في آسية الصغرى ، وأنشاوا ممالك مستقلة . ثم نازعوا الدولة الفاطمية ؛ فزاد ذلك في ضعف المسلمين ، واطمع بهم الافرنج . وفي عصر السلاجقة نشبت الحروب الصليبية .

٢٣ ـ الحروب الصليبية

الدور الاول . الافرنج في سورية

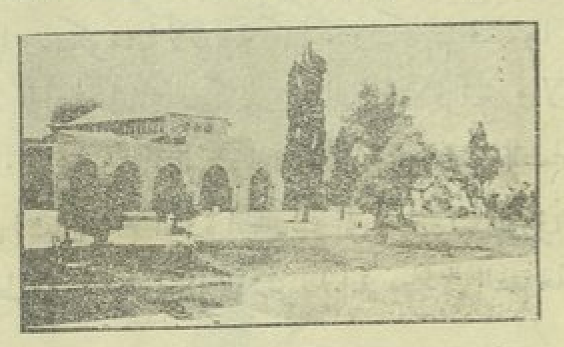
افظع حرب في التاريخ ــ كانت الحروب الصليبية ــ باسبابها ومعاركها ونتائجها على الشرق ــ افظع حرب في التاريخ ، واشنع لطخة في مدنية العصور الوسطى . فقد جاء الاوروبيون الى سورية ، واقاموا فيها المذابح ، واتوا فيها الفظائع ، حتى ان المؤرخين الاوروبيين انفسهم ليخجلون مما صنعه اسلافهم في بلادنا .



مرجات الصليبيين

اينما حلوا ، حتى وقفوا على اسوار القدس اكثر من شهر . ثم فتحوها صلحاً بعد ان امنوا سكانها وامنوا الحامية الفاطمية التي كانت تقوم على حراستها .

لكنهم ما كادوا يدخلون القدس حتى اعملوا السيف في اهلها ، فقتلوا نحو سبعين الف نسمة في الحرم الشريف . وكان فارسهم يخوض في الدم الى ركبة حصانه . واقتحموا كنائس اليهود يقتلون اللاجئين اليها . وفتكوا بالشيوخ والنساء وبالاطفال ، لم تمنعهم بقية من دين ولا عاطفة انسانية .



(شكل ٤٩) باحة المسجد الاقصى (في الحرم الشريف)

ولم يقتصر حنق الصليبيين على البشر ، بل تعداهم الى العلم فاحرقوا المكاتب ، وفيها الوف من الكتب المخطوطة القيمة . وسترى بعد قليل كيف كانوا يهاجمون القوافل في

ايام الهدنة والمعاهدات ، ويسلبون التجار اموالهم واشياءهم ثم يولون الادبار .

فقضى الافرنج — وذلك اسم آخر للصليبيين — ربع قرن يتدفقون في اثنائه على سورية ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يحتلوا إلا الساحل السوري ، وبعض البلدان الداخلية ، وظلت دمشق ، قلب سورية ، سالمة من فظائعهم .

المملكة اللاتينية — أطلق الصليبيون على البلدان التي حكموها في سورية « المملكة اللاتينية » اذ كانت لغتها ومذهبها وحكومتها لاتينية كلها . ولكنهم قسموا هذه المملكة الى مقاطعات حكمها الملوك الافرنج والاشراف والامراء على نحو عاداتهم في اوروبة . وهذه المقاطعات هي الرها في الشمال ، ثم امارة انطاكية الى الجنوب الغربي منها ، فامارة طرابلس ، فمملكة القدس . (الخريطة في الصفحة ٨٥) .



٢٤ – حياة الصليبيين في سورية

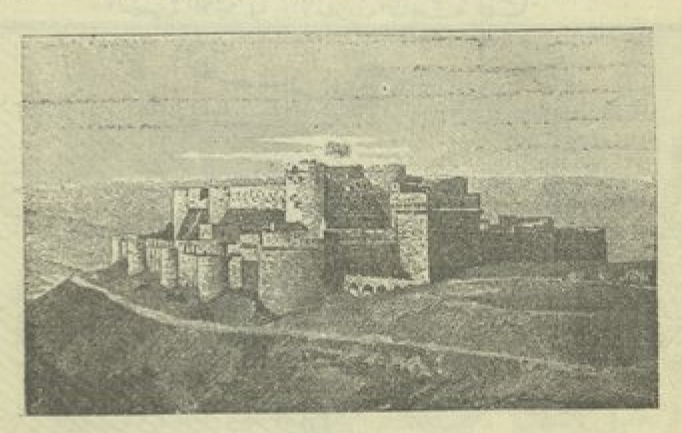
نزل الصليبيون في سورية بعاداتهم وانظمتهم ، فأمست البلدان التي نزلوها كأنها قطعة من اوربة في العصور الوسطى.

الحملة الصليبية الاولى
المملكة اللاتينية والامارات التابعة لها



ولقد عاش الصليبيون في سورية عيشة عسكرية دينية . ان سيطرة البابا على الصليبيين جعلت حملاتهم (كما يدل اسمها عليها) دينية ؛ وان المعارك التي اتصلت بينهم وبين السوريين مائتي عام ، جعلت حياتهم عسكرية .

رجال الدين — كان الأثر الاول في حياة الصليبيين



(شكل ٥٠) احدى قلاع الصليبيين في سورية

للبابا ؛ فهو رأس حكوماتهم ، ومصدر سلطتهم فلا عجب اذا اصبح لرجال الدين ، بين الصليبيين ، مرتبة سامية ؛ حتى ان بطريرك القدس كان يتوج ملوكهم ؛ وكان فوقهم سلطة ورتبة .

ولم يكتف رجال الدين بأعمالهم الدينية ، بل ضموا اليها

اعمالا دنيوية من الحرب والسياسة ، ونشأ فيهم فرق اهمها فرقة الداويين او الهيكليين ، الذين انتسبوا الى هيكل اورشليم « واقسموا ان يدافعوا عن المملكة اللاتينيـة حتى الموت » .

الاشراف — كان الملك بين الصليبيين استبدادياً ، ولم يحفل الملك دائماً بان يدير اعماله بنفسه ؛ بل عهد بها الى اشراف مسئولين تجاهه ؛ وربما عهد هؤلاء بهـذه الاعمال الى اشراف ادنى منهم مرتبة . واستعبد هؤلاء بدورهم الاقنان (العبيد) يستغلون جهودهم في الزراعة والجندية ؛ فتم بذلك في سورية نظام اقطاعي على نحو ما كان في اوروبة او اشد .



(شكل ٥١) فارس صليبي

الفرسان — الفرسان عماد الحروب واصحاب القتـال فلا عجب اذا رفـع الصليبيون مرتبهم واحترموهم . ويقول أسامة بن منقذ ، الذي سنحدثك عنـه : « والافرنج ما فيهم فضيـلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، وليس عندهم منزلة عالية الا للفرسـان ؛ ولا عندهم ناس الا الفرسان . فهم اصحاب القضاء والحكم .

فاذا عقدوا حكماً لم يستطع الملك ولا احد غيره ان يغيره او ينقضه . واحسن الفرسان في نظر الافرنج من كان طويلاً دقيقاً » .

العامة — جرّت الحروب الصليبية معها الى الشرق مهاجرين من انحاء اوروبة ، سكنوا المدن السورية واختلطوا بأهلها . وكان اكثر هؤلاء من البرجاسيين (اي التجار الذين لايقاتلون ولا يحضرون القتال) — والكلمة افرنجية معربة — وقد اقام البرجاسيون محاكمهم الخاصة ومؤسساتهم ، وكانوا يترددون بتجارتهم بين السوريين والصليبيين على السواء .

وهنالك طبقة اخرى كانت تنتفع من الحروب الصليبية : اؤلئك تجار المدن الاوروبية — الايطالية خاصة — الذين اسسوا مستعمرات تجارية على الساحل السوري ، وكانوا ينقلون الصليبيين بمراكبهم بين سورية واوروبة . من اجل ذلك منحهم الصليبيون امتيازات كثيرة : منها السكنى في احياء خاصة من المدن السورية ، ومنها انشاء محاكم تجارية مستقلة .

يأتي الجندي الصليبي الى سورية يحمل لاهلها عداء

حميتاً وغيظاً شديداً ؛ فاذا تبلّد — سكن البلد — وعاشر السوريين تبدلت عاداته ودمثت اخلاقه . وقد روى لنا التاريخ ان بعض الصليبيين اصبحوا اصدقاء للسوريين يتزيون هم ونساؤهم بزيهم . ومنهم من كان يترك الخنزير ، ويجعل بيته نظيفاً ، كما يقول أسامة بن منقذ عن رجل افرنجي في انطاكية .

عرس افرنجي في صور — واسمع الآن السائح الاندلسي ابن جُبير يصف عرساً افرنجياً في صور ؛ قال : « احتفل جميع الافرنج رجالا ونساء ، واصطفوا صفين عند باب العروس والبوقات تضرب ، والمزامير وسائر الآلات الموسيقية . ثم خرجت العروس تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال ؛ وهي في ابهى زي وافخر لباس ، تسحب اذيال الحرير المذهب .

وكان على رأسها عصابة ذهب قد حُفّت بشبكة ذهب منسوجة . وعلى صدرها مثل ذلك . وهي رافلة في حُليها وحللها تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة او سير الغمامة . وامامها كبار رجالها في افخر ملابسهم البهية ووراءها من النساء اكفاؤها ونظراؤها يتهادين في أنفس الملابس ، ويرفلن في اثمن الحلي . وقد وقف كثير من المسلمين والنصارى صفين يتطلعون

ويتفرجون . وسار القوم بالعروس على هذا الشكل حتى ادخلوها دار بعلها ، واقاموا يومهم في وليمة وسرور » .

ومن ذلك ترى أن الصليبيين قلدوا العرب السوريين في العادات والازياء والاحتفالات كما أنهم أقتبسوا منهم طراز الابنية كالقصور والقلاع ، وتعلموا كثيراً من الصناعات كصناعة الصابون والسكر والزجاج والاسلحة ، واخذوا زراعة الاشجار المثمرة ، وبناء السفن التجارية والحربية .



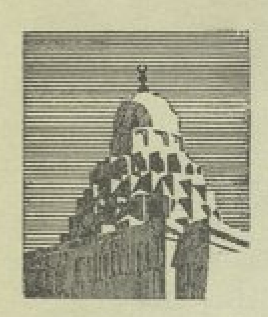
الدور الثاني

٢٥ — يقظة المسلمين وانهزام الافرنج

اطبقت جحافل الافرنج على سورية فجأة ؛ وظلت تتدفق كالسيل الجارف على بلاد أضعفتها المنازعات الداخلية ، فاستطاعوا تأسيس ممالكهم التي عرفت خبرها مما مر ؛ والتي لم تعش قوية اكثر من اربعين عاماً فقط .

ثم ان المسلمين ما لبثوا أن تنبهوا ، وجمعوا شملهم لمقاومة الصليبيين بقيادة آل زنكي : امراء الموصل ودمشق . لقد استطاع عماد الدين زنكي ان يُخرج الصليبيين من الرُها ، وقرر ابنه نور الدين أن يدفع الصليبيين عن دمشق ؛ وان يحبط اعمالهم في كل مكان .

صلاح الدين — توفي نور الدين (٥٦٩ هـ ، ١١٧٤ م) فأصبحت الكلمة العليا لنائبه في مصر — صلاح الدين الايوبي — الذي هزم الصليبيين في مصر ، واتى الآن ليضربهم الضربة القاضية في سورية .

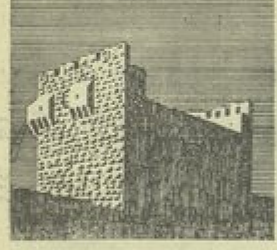


من حطين الى القدس — كثر إخلاف الصليبيين لوعودهم ؛ وزاد اعتداؤهم على قوافل الحجاج فسار صلاح الدين ليلتقي اعداءه في حطين — قرب مدينة طبرية — ولم يضع صلاح الدين وقتا في الانتظار ؛ بل قطع الماء عن الجيش الصليبي ، واشعل النار في مهب الريح ، فأخذ الدخان يتجه الى صفوف الافرنج ويعمي ابصارهم . وكان حر تموز والعطش يساعدان الدخان على اضطراب جيش الفرنجة ثم هجم صلاح الدين على رأس جيشه واعملوا جميعهم السيوف في الاعداء ، وقطعوا الذين لا يفون بالوعد تقطيعاً (٥٨٣ هـ ، ١١٧٨ م) .

(شكل ٥٣ قبة المدرسة النورية)

ومن حطين سار المسلمون الى القدس ، وبعد حصار ثمانية ايام فتحوها صلحا ، وكان صلاح الدين وجيشه مثال الشهامة العربية ، فلم ينقضوا عهداً ولم يخفروا ذمة ؛ بل سمحوا للصليبيين بالخروج من المدينة آمنين . ثم انهم كانوا يقدمون للفقراء والعاجزين مالاً ودواب ينتقلون بها الى حيث يشاءون .

واستفاد صلاح الدين من انتصاراته فتابع الفتوح حتى لم يبق في ايدي الصليبيين الا انطاكية التي احتلوها مرة اخرى ، وصور وطرابلس .



(شكل ٥٤) برج في قلعة دمشق
(عن سوفاجه)

ثم توفي في دمشق (٥٨٩ هـ ١١٩٣ م) وهو قرير العين لان الاراضي المقدسة قد نجت من قبضة الافرنج أو كادت .



نقوش ازهار متشابكة في مدرسة فروخ شاه بدمشق
(عن سوفاجه)

٢٦ _ حياة السوريين في الحروب الصليبية

لم يبق في هذا العصر أثر ما للخلافة العباسية في سورية. لقد كاد الناس ينسون ان هنالك خليفة في بغداد؛ ولولا ان أئمة المساجد كانوا يخطبون في ايام الجمع والعيدين: عيد الفطر وعيد الاضحى، باسمه لما ذكره السوريون قط. غير ان الله تعالى قيّض لسورية امراء يدافعون عنها، وغرس حبها في قلب كل سوري فكان يبذل كل ما لديه من قوة ليرد عنها الخطر الصليبي.

كانت المدن في ذلك الحين مسوّرة، ذات قلاع وحصون وكان الناس على إستعداد دائم للقتال، يذهبون اليه كما يذهب آباؤنا واعمامنا واخوتنا اليوم إلى أعمالهم في الاسواق. وسأقص عليك الآن قصة الامير أسامة بن مُنقذ لترى الشجاعة والشهامة المتمثلتين في هذا الامير.

نشأة اسامة الاولى _ نشأ الامير اسامة في بلدة شَيزر قرب حماه، وكانت اسرته عريقة في النسب والحسب

فربته تربية دينية فشب تقيا، كريم الاخلاق، حسن التأديب؛ وقد بلغ من تشدد قومه في تربية ابنائهم انهم قتلوا شابا كان يقلد إمضاء الناس.


(شكل ٥٩) قلعة شيزر مقر اسرة اسامة

واتصف أسامة واهله بالقوة والشجاعة، حتى ان امه كانت تحارب الافرنج الصليبيين في بعض الاحيان.

اسامة في الحرب — كان أسامة — كجميع امراء المسلمين — يقضي حياته في حرب الافرنج؛ ومع انه عاش كثيراً فانه لم يقع اسيراً الا مرة واحدة. وكثيراً ما كان يذهب مع بعض رجاله ويغير على الحاميات الصليبية فيكثر فيها القتل، او يقف معهم على جسر نهر العاصي قرب حصن شيزر ويرد الافرنج عن بلده واهله، بعد ان يكبدهم خسائر كثيرة؛ حتى ان الافرنج انفسهم كانوا يحترمونه، ويخافون ان ينازلوه في المعارك.

ويتأفف أسامة من شيء واحد : هو ان الصليبيين لم يكونوا يحافظون على وعودهم ، بل كانوا يهاجمون قوافل التجار والحجاج في ايام السلم ايضاً ؛ وقد هاجموه مرة وسلبوه امواله ومتاعه واربعة آلاف كتاب مجلد كان يحملها معه . لكنه استطاع بشجاعتــه ان ينجو هو والذين معه من الاسر .

اسامة في الصيد — اذا عقد المسلمون « هدنة » مع الصليبيين قضوا ايام السلم في الصيد طلباً للنزهة والرياضة .

وكانت « غية » اسامة صيد الوحوش كالاسود والنمور والثعالب ! او صيد الارانب والطيور . وقد بدأ اسامــة الصيد وهو صغير جداً ، وقتل اسداً عجز عن صيده الفرسان الكبار ؛ فلما عاد مساء الى البيت وبخته جدته ونصحته بان لا يغرر بنفسه مرة اخرى .



(شكل ٥٥) بازيار

تعود اسامة الصيد بالبُزاة والصقور فكان « غلمانه »

— أي الذين يخدمونه ويتصيدون له — يرسلون الباز على الغزال مثلا فيحط على رأسه، ولا يزال يضرب عينيه حتى يعميهما فيدركه الصيادون حينئذ ويأخذونه . وقد يرسلونه على الحجل ودجاج الماء فيأتي بها .

وتغالى الناس في اقتناء البُزاة فارتفع ثمن «فرخ الباز» الى خمسة عشر ديناراً ذهباً . ومما يدلك على غنى اسرة اسامة قوله : ان البزاة كانت في بيتهم مثل الدجاج .

سكان المدن — كانت المدن في اثناء الحروب الصليبية قسمين : قسما احتله الافرنج : كانطاكية وبيروت وصور وعكاء والقدس وغيرها من مدن الساحل ؛ وقسما ظل ابداً بيد المسلمين كحلب ودمشق وغيرها من المدن الداخلية . لكن مدن الساحل لم تظل



(شكل ٥٦) محراب ايوبي
(عن بيجون)

دائماً في ايدي الافرنج ؛ بل كان الافرنج يحتلونها مرة ، والمسلمون يسترجعونها مرة . وهكذا دواليك مدة قرنين كاملين .

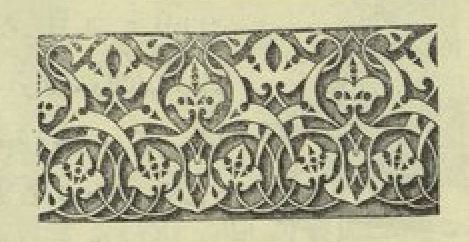
لم يشأ بعض المسلمين ان يسكنوا البلدان التي احتلها الافرنج ، بل نزحوا عنها الى البلدان التي ظلت في ايدي مواطنيهم ؛ ولكن بعضهم بقوا في المدن المحتلة ؛ لان الصليبيين احتاجوا اليهم فعاملوهم معاملة حسنة .

كان المسلمون هم الصناع والتجار والزراع واصحاب الاعمال ؛ فلو هجروا عكاء او صور او القدس لما استطاع الافرنج ان يسكنوها . تخيل البلدة التي انت فيها اليوم ليس فيها نجار ولا فران ولا تاجر نسيج ، ولا بائع سمن ولا حداد ؛ فكيف تكون السكنى فيها ؟

وقد استطاع المسلمون الذين عاشوا في المدن المحتلة ان يحافظوا على حميتهم وآدابهم وعاداتهم وحبهم لبلادهم ؛ ولم يتخلقوا بأخلاق الافرنج التي لاتوافقهم . اما التجار الذين كانوا يترددون بتجارتهم بين المدن المحتلة والمدن الاسلامية على السواء ، فقد ربحوا ارباحاً طائلة .

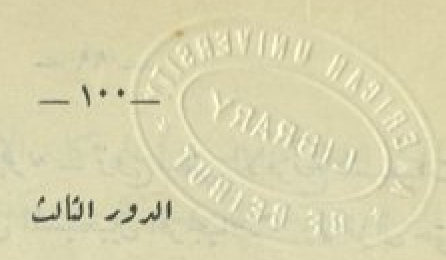
النصارى السوريون — تزوج بعض الافرنج مسيحيات سوريات ، وتزوج بعض المسيحيين افرنجيات ؛ ولا نزال حتى اليوم نرى آثار هذا الزواج ظاهراً في بعض بياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العيون . واقام بعض الصليبيين في سورية واسسوا أسراً وبيوتاً حتى اصبحوا كالسوريين انفسهم .

اليهود تجار — حاول اليهود ان يستفيدوا من الحروب الصليبية اكبر قدر مستطاع ، فما كادوا ينسون ظلم الصليبيين يوم فتح القدس حتى انقلبوا تجاراً يقدمون للافرنج القروض «يدينونهم مالا» والسلاح ؛ وتألفهم الصليبيون فعاشوا عيشة هناء كلها ربح وأمن .



« شكل ٥٧ » نقوش من المدرسة الشامية التي بنتها ست الشام اخت صلاح الدين (١١٨٦م ٥٨٢هـ)

(عن سوفاجه)



الدور الثالث

٢٧ـ المماليك يطردون الصليبيين

علمت في العام الماضي ان المماليك جماعة من الناس كان الاغنياء والامراء يشترونهم بالمال للخدمة في البيوت او لجعلهم جنوداً في الجيش .

وعلمت ايضاً انهم لما كثروا في مصر واشتد ساعدهم وثبوا على الحكام واخذوا البلاد منهم . وكان هؤلاء المماليك يُرَبَّوْنَ عند اسيادهم تربية اسلامية قومية ، فدفعتهم حميتهم وعزة نفسهم — وإن كانوا عبيداً مماليك — الى مقاومة الصليبيين ، والقضاء عليهم مرة واحدة .



(شكل ٥٨) احد المماليك

دولتا المماليك — المماليك اسرتان اولاهما اسرة المماليك البحرية وهم اتراك ، والثانية اسرة المماليك البرجية وهم جركس . اما حديثنا الآن فيتناول الاسرة التركية التي طردت الصليبيين من سورية .

الظاهر بيبرس — كان الظاهر بيبرس البندقداري اول

سلاطين دولة المماليك البحرية الذين تبوأوا عرش مصر مدة قرن . فما كاد يثبت مركزه في مصر ، حتى وجه همته الى طرد الصليبيين من سورية ، لانهم حركوا غضبه مرات عديدة بنقض عهودهم . فتقدم الى فلسطين واستطاع (٦٦٤ هـ ١٢٦٥ م) ان يفتتح قيسارية — بلدة جنوبي حيفا — بعد حصار خمسة ايام ، وأن يهدم أسوارها .

وفي العام الثاني انجد بيبرس انطاكية ليدفع عنها الصليبيين . ولم يفتأ ينتقل من مكان الى مكان ، ويهزم الصليبيين حتى احتل صفد ، وفتح قلعة صافيتا وحصن الاكراد — وهما في شمالي طرابلس — ، واستولى على قلعة الشقيف في الشوف من لبنان . وفي ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) توفي بيبرس في إبان مجده راضي النفس ، لانه خدم وطنه وبلاده .



(شكل ٥٩)
نافذة من زجاج ملون

اخراج الصليبيين من سورية — بعد وفاة الظاهر بيبرس استطاع السلطان قلاوون ان يغتصب الملك من ابنه القاصر — وكان وصياً عليه — ثم نازل قلاوون الصليبيين ،

واستولى على جميع البلدان التي كانت باقية في ايديهم الى ذلك الحين ، ما عدا عكاء .

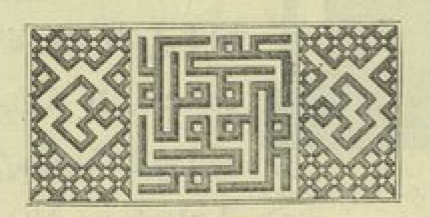
وجاء ابنه السلطان خليل فجمع كلمة الامراء المسلمين ، واستعد استعدادا عظيماً ثم سار الى عكاء — آخر حصون الصليبين واقواها — ؛ وبعد حصار ثلاثة واربعين يوماً سقطت المدينة في يده . وهكذا نجت سورية من فظائع الصليبيين وساد السلام (٦٩٢ هـ — ١٠٩١ م) على الساحل السوري بعد ان شهد القتال مائتي عام ، واصبحت اكثر بلدانـه خراباً ، وأكثر اراضيـه الزراعية مهملة .

آثار المماليك البحرية — ترك المماليك وراءهم آثارا جليلة ، فأينما سرت في مدن سورية ترى المدارس والمكاتب والمساجد والحصون التي رممها المماليك وزينوها ، والتي بنوها ؛ ولا يزال بعضها الى اليوم يحمل اسماءهم كالمدارس الظاهريـة في حلب وحمص ودمشق — نسبة الى الظاهر بيبرس — . وعبّد الظاهر الطرق ايضاً وأصلح الأقنية لتحسين الزراعـة ؛ ونظم البريد لنقل الاخبار بسرعة .

وقد اهتم قلاوون بتشجيع التجارة ، وعقد المعاهدات

مع حكومات اوروبة ، فازدهرت التجارة في ايامه و كثرت الاموال . واشتهر قلاوون بالاعمال الخيرية ؛ فإنه بنى مستشفيات للفقراء والاغنياء على السواء وجعل بعضها خاصاً بالنساء ؛ وانشأ ملجأ للايتام . ثم شيّد المدارس للاطفال و الصبيان ، وبنى مكاتب للجُمهور وملأها بالكتب الكثيرة القيّمة .

و كثر في ايام المماليك البحرية فتح الطرق ، وبناء الجسور على الأنهار ، وتحصين البلاد والثغور ، وتشييد القلاع والحصون . ويكفيهم فخرا انهم خلصوا سورية من الجيوش الصليبيّة وحموها من غارات المغول المتوحشين ، وجعلوا الامن يستتب فيها مدة حكمهم ٦٥٩ ــ ٧٨٤ ﻫ (١٢٦٠ ــ ١٣٨٢ م) .



نقوش من المدرسة الركنية (ركن الدين)
في عصر المماليك عام ١٢٢٤ م ٦٢١ ﻫ
(عن سوفاجه)

٢٨ ـ سورية في عهد المماليك البرجيه الجراكسة

المماليك البرجيه والفوضى — كان حكم المماليك البرجية (٧٨٤ ـ ٩١٣ هـ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م) اطول من حكم المماليك البحرية . ولكن عهدهم كان مملوءاً بالفوضى والمنازعات ، ولم يقدموا لسورية خدمة يذكرون بها .

(شكل ٦٠) منبر من عصر المماليك (عن ميجون)

لقد رأينا المماليك البحرية يطردون الصليبيين من سورية ، ويردون عنها غارات المغول ؛ اما المماليك البرجية فقد شغلتهم منازعاتهم عن مقاومة تيمورلنك (اي تيمور الاعرج) المغولي الجركس الذي هاجم سورية (٨٠٣ هـ ١٤٠١ م)

اجتاح تيمورلنك سورية اجتياحاً فظيعاً ، فسبى ونهب وقتل ، وكان حظ دمشق منه اسوأ الحظوظ فقد اسر من اهلها الشبان من العمال والصناع : كالحدادين والنجارين والمهندسين والبنائين وصناع القيشاني (فخار ملوّن مع زخارف عليه) ، وحملهم الى عاصمته سمرقند (في شرقي آسية الشمالي) . ثم اعمل النار في المدينة فاحترقت بيوتها ومساجدها ومدارسها واسواقها ، ولم يبق من الجامع الاموي الا جدران قائمة لا سقف عليها ، ولا رخام في ارضها ولا فسيفساء تزينها .

الحركة العلمية — احب الناس العلم فانصرفوا في هذا العصر الى التأليف . ولكن تآليفهم كانت اختصاراً للكتب القديمة ، او شروحاً عليها . وربما قرأ احدهم كتباً قديمة كثيرة . ثم جمع منها مختارات ، فضمها في تأليف ووضع اسمه عليها .

غير ان هؤلاء المؤلفين افادونا كثيراً لان المعلومات كانت متفرقة في الكتب القديمة فجمعوها ورتبوها في كتبهم . وجعلوا كثيرا منها مرتباً على حروف المعجم (اي

كما يرتب القاموس) ؛ فاصبح بأمكاننا ان نراجع الامور التي نريدها بوقت قصير . فاذا احببنا ان نعرف شيئاً عن بيروت مثلاً بحثنا في « حرف الباء » ، او شيئاً عن دمشق بحثنا في « حرف الدال » .

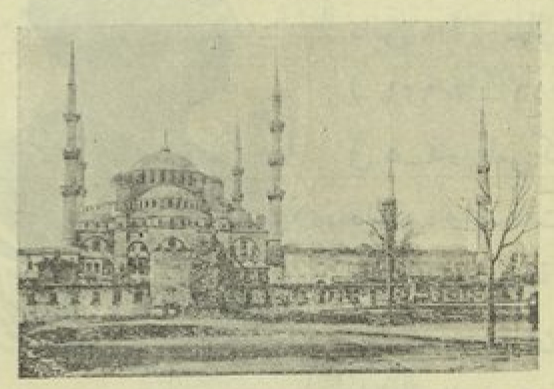


قطعة قيشاني من عصر المماليك الجركس
(عن سوفاجيه)

القسم الثالث : سورية في العصور الحديثة

٢٩ـ منذ الفتح العثماني (٩٢١هـ ـ ١٥١٦م) الى العصر الحاضر

ظهور العثمانيين في التاريخ — لقد علمت من الجزء الاول ان العثمانيين اتراك كالسلجوقيين ، وانهم جاءوا من اواسط آسية في اواخر الحروب الصليبية .



(شكل ٦١) جامع السلطان احمد في استنبول وهو نموذج للطراز العثماني

كان اول سلطان على الاتراك العثمانيين « عثمان بن ارطغرل » واليه نسبت الاسرة المالكة . ولقد قدر عثمان هذا ان ينشيء في غربي آسية

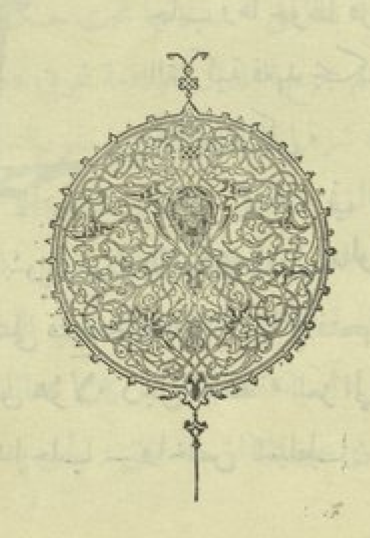
الصغرى بمالكة قوية ؛ واستطاع احد احفاده محمد الثاني ان يفتح القسطنطينية عام «٨٥٧ هـ/١٤٥٣م» وان يقضي على الامبراطورية البيزنطية المتضعضعة . ومنذ ذلك الحين عرف بلقب «محمد الفاتح» . ولقد كان لسقوط القسطنطينية في ايدي العثمانيين اهمية عظمى ، حتى ان المؤرخين اعتبروا ذلك نهاية للعصور الوسطى وبداية للعصور الحديثة .

معركة مرج دابق — ظلت سورية تابعة للمماليك البرجيين في مصر حتى جاء السلطان العثماني سليم الاول وحارب قانصوه الغوري في مرج دابق ، شمالي حلب (٩٢١ هـ — ١٥١٦م) . في هذه المعركة قتل قانصوه واصبحت سورية بعد ذلك مقاطعة عثمانية. ولا ريب في ان عهد المماليك البرجيين كان في سورية عهد شدة وظلم وارهاق بالضرائب ، فلا عجب اذا مال الاهلي الى الفاتح الجديد توهماً منهم انه اصلح من السابق.



(شكل ٦٣) السلطان سليم الاول

العثمانيون والخلافة — تابع سليم الاول سيره الى مصر فلم يجد صعوبة البتة في استنقاذ مصر من ايدي المماليك . ثم لما رجع عنها حمل معه عدداً كبيراً من الاعيان وابناء السلاطين، ومن الفقهاء والصناع واصطحب « المتوكل » آخر خليفة عباسي ، وكان هذا قد لجأ الى مصر بعد ان خرب هولاكو (٦٥٦هـ ١٢٥٨ م) بغداد . ومن ذلك الحين زال اسم العباسيين من تاريخ الامبرطورية الاسلامية ، وحل محله اسم العثمانيين . ولم يمض وقت طويل حتى تلقب العثمانيون بلقب « امير المؤمنين » وادّعوا الخلافة .



٣٠ـ سورية مقاطعة عثمانية

– عصر البشوات –

اقام السلطان سليم في سورية ومصر — بعد ان فتحهما — نحو عام ، فلم يتسع وقته لتنظيمهما تنظيماً تاماً ، بل اكتفى بان يتركهما على ما كانتا عليه من قبل وان يبقيهما تحت ادارة حكامهما الاولين من المماليك ؛ ولكنه رأى حلب وما حولها قريباً من الحدود التركية فعهد بحكمها الى « باشا » حاكم تركي .



(شكل ٦٣) احد بشوات سورية

وكان في جيش قانصوه الغوري رجال مالوا الى السلطان سليم وساعدوه على فتح هذه البلاد فلما تم فتحها جعلهم حكاما فيها . وكان من هؤلاء رجل اسمه « الغزالي » تولى حكم سورية — ما عدا حلب — واخلص للسلطان سليم . ولكن

لما توفي السلطان سليم بدا للغزالي ان يستبد بحكم سورية وان «يعلن عصيانه على الدولة»، ولكن جيش السلطان سليمان ابن السلطان سليم التقاه في معركة قرب دمشق وقتله (٩٢٨هـ ١٥٢١م

قد كلفت هذه الحركة سورية عموما والمماليك خصوصاً ثمناً غالياً، لان العثمانيين لم يأمنوا فيما بعد الاحكام منهم، ففتحوا عصر البشوات الذي امتلاء اكثره بالاضطرابات السياسية والارهاق المالي.

مقاطعات سورية — في القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) كان في سورية اربعة مقاطعات ادارية يسمى كل منها «بَشَالِق» — لانها تحت حكم باشا — بشالق دمشق الذي يضم جميع البلدان الواقعة غربي دمشق الى ساحل البحر، والواقعة شرقها الى تدمر، والتي جنوبها حتى غزة في اقصى الجنوب. ثم بشالق طرابلس وفيه القسم الاكبر من وادي العاصي — حول حمص وحماه — والشاطىء الممتد الى جَبْله شمالا. اما المقاطعة الثالثة فبشالق حلب الذي يضم البلدان القريبة من حدود آسية الصغرى. وكان هنالك ايضاً بشالق صيداء الذي فُصل عن بشالق دمشق والحق به جبل لبنان

وكان هذا تحت حكم أُسر اقطاعيـة تقدم الميرة الى جيش الاحتلال والمال الى خزانة الدولة .

سيئات حكم البشوات — سيئـات حكم البشوات ثلاث : اولاها ان الباشا كان تركيا غريباً عن البلاد ، وثانيها انه بعيد عن مراقبة الدولة ، يفعل ما يشاء من غير ان يعرف



(شكل ٦٤) الجنود الانكشارية ، هم القدماء في الجيش العثماني

السلطان ماذا يعمل ، وثالثهـا انه يشتري مركزه من رئيس الوزراء بالمال . فان الرجل يذهب الى استانبول — عاصمة الدولة العثمانيـة — ويطلب توليته على بشالق او في احـدى

مراكز هذا البشالق، ثم يدفع المبلغ المطلوب منه مقابل ذلك.
فلنفرض ان الدفتردار « حامل الدفتر = امين الصندوق » يدفع خمسين الف ليرة ذهبية ثمن مركزه في بشالق دمشق ، فماذا تراه يفعل اذا جاء الى مركزه ؟ انه في الدرجة الاولى يسعى الى جمع الاموال التي دفعها في استانبول ، وان يجمع فوقها ربحاً له .

وبما ان مدة « التلزيم » هي عام واحد فان « المأمور » لم يكن يفكر في تنظيم احوال البلاد او في نفعها ، بل يقضي مدة « توظيفه » في جمع المال من الشعب. ثم يحمل ماجمع ويذهب في نهاية مدته الى استانبول ليجدد مدته ، او يشتري مركزاً آخر في بشالق جديد .

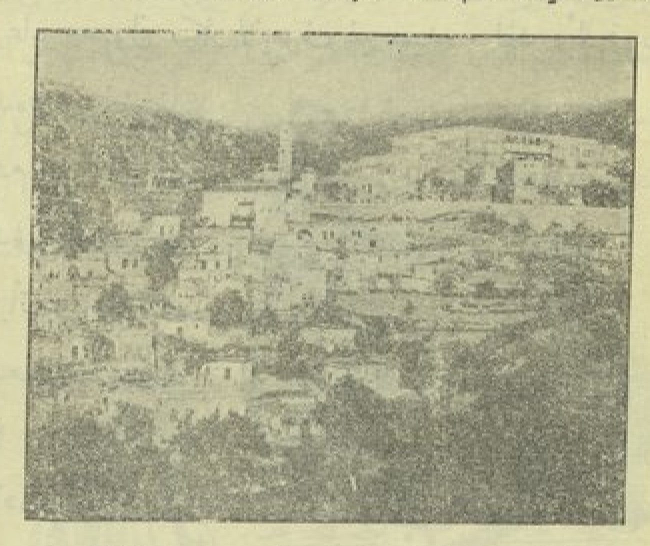
٣١ـ اصحاب النفوذ في عصر البشوات

العناصر العربية — نزل في سورية ولبنان — منذ الفتح الاسلامي — كثير من العرب ، كان اشهرهم بنو معن الذين بدأوا يبرزون في السياسة المحلية منذ مطلع القرن العاشر للهجرة (والسادس عشر للميلاد). كان هؤلاء في اول امرهم يحافظون على ولائهم للعثمانيين ، ولكنهم يطمحون الى حكم بلادهم بانفسهم مكان الباشا الذي ترسله استانبول الى سورية.

الاسر العربية — وكان في سورية ولبنان — منذ العهد الذي نتكلم عنه — أُسَرٌ عريقة في النسب ترجع الى اصول مختلفة ، وهي لا تزال معروفة لدينا كل المعرفة او بعضها كآل شهاب العرب وآل جنبلاط الاكراد وآل ارسلان ، وآل العظم في دمشق ، وآل الخازن في شمال لبنان.

سعت هذه الاسر كلها الى السلطة ، والى ان تثبت حكمها في البلاد التي تسكنها ، ومع انها ارادت نفع نفسها في الدرجة الاولى فانها نفخت في السوريين اجمع روح الاستقلال

وجنّبت اليهم الحرية . ثم ان هذه الأسر خدمت السوريين واللبنانيين في العلوم والآداب والعمران ، فخلفت لنا القصور



(شكل ٦٤) حاصبيا – في وادي التيم – وهي مدينة الشهابيين
(انظر الى اليمين قصرهم القديم)

العظيمة والنقوش الجميلة، ولكنها جرّت على سورية شيئاً من الاستبداد السياسي ومن الحزبية المحلية التي لانزال نرى آثارها ظاهرة حتى اليوم .

المشايخ والبكوات — وهؤلاء المشايخ والبكوات كانوا يحاولون قطع الصلة بين العثمانيين وبين الشعب . عاش السوريون

منذ الفتح العثماني حياة اقطاعية — ولا يزال بعضهم كذلك الى اليوم — فكنت ترى الفلاح في البقاع وحوران ومرج ابن عامر وسهول عكار لا يعرف غير سيده . لقد وُلد في بيت سيده وهو يشتغل ليقدم الغلال الى سيده ، ويعيش هو وامرأته واولاده للخدمة في بيت سيده واذا توفي قام اولاده واحفاده من بعده بهذه المهمة الشاقة التي لا حرية فيها ولا سعادة . وهكذا تعيش هذه الاسرة مئات السنين قانعة بشقائها لا تعرف ان في العالم كله رجلاً عظيما غير الرجل الذي تعيش في ارضه وتحتمي بقوته . هذه هي السلطة التي كان يتمتع بها الشيخ في لبنان ، والبك او الباشا في سائر انحاء سورية .



(شكل ٦٥) شيخ لبناني ، واحد اتباعه يخدمه

المقدمون — المقدَّمون جماعة نشأوا في شمالي لبنان وجبال النصيرية خاصة ، وكانوا الصلة بين الباشا التركي وبين الشعب . فهم الذين يجمعون الضرائب ، وهم الذين ينهون اعمال الناس في دوائر الحكومة ، ويتوسطون في حل المشاكل بين الشعب والحكومة .

والمقدَّم يعرف شيئاً من القراءة والكتابة والحساب يسيِّر به الاعمال ، ويتمتع بسلطة واسعة ومقام رفيع . فهو لا يشتغل بالزراعة ولا بالتجارة ولا بالصناعة ، بل يعيش من كسب الذين يبسط عليهم سلطته ، فتراه دائماً هو وابناؤه يلبسون الثياب الحريرية ويركبون الخيول الجميلة ويذهبون الى الصيد في القرى والمزارع . واذا اتى احدهم الى البلدة سار امامه فارسان وخلفه فارسان و كلهم يحملون السلاح ويصفون مناطق الرصاص على صدورهم



(شكل ٦٦) امرأة لبنانية بزيها القديم والطرطور على رأسها

واوساطهم . والويل لمن يخالف المقـدَّم فان نصيبه الضرب بالاكف والسياط ، وربما القتل ايضاً .

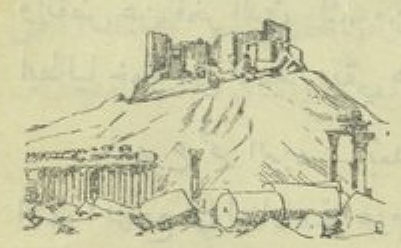
وكان هذا المقدم في اول الامر يُنتخب انتخاباً، ولكن سرعان ما اخذ المقدمون يعيّنون اولادهم بعدهم وهكذا اصبح هذا المنصب الاداري وراثياً استبدادياً .

المجتهدون — المجتهدون هم كبار رجال الدين في الشيعة. يبدأ المجتهد علومه هنا حيث يكثر قومه بين صوز وصيـداء وشرقها ، فاذا تفقه — تعلم الفقه اي العلوم الدينية — ذهب الى العراق ليدرس على كبار ائمة الشيعة في النجف ، ثم رجع الى بلاده فيكون رئيساً دينياً ، ويتسلم زمام التعليم في الاغلب ، ويتمتع بين قومـه بنفوذ عظيم فيما يتعلق بامور دينهم ودنياهم . والشيعيون يحترمون طبقة اخرى منهم ، هي طبقة السادات او الاسياد ، والسيد رجل يرتقي نسبه الى علي بن ابي طالب كرم الله وجهه . وهؤلاء السادات يعيشون — في العصر الذي نتكلم عنه — من الزكاة التي يقدمها الشيعة اليهم .

٣٢ـ عصر الامراء والحكام الوطنيين

اسرة بني معن — استطاع الامير فخر الدين الاول ان يكون حاكما في لبنان منذ العام الاول للفتح العثماني ، ثم خلفه ابنه الامير قرقماس (تحريف لفظة تركية معناها «لايخاف»)؛ ومع ان هذين الاميرين حكما لبنان سبعين سنة او تزيد فان شهرة المعنيين ترجع الى حكم الامير فخر الدين الثاني ابن قرقماس .

فخر الدين الثاني «الكبير» — لما بلغ الامير فخر الدين الثاني اشده اخذ ينازع منافسيه ويتغلب عليهم واحداً بعد واحد، حتى اصبح حاكما مطلقاً على البلدان المترامية بين شمال لبنان وشرق الاردن .



(شكل ٦٧) قلعة الامير فخر الدين في تدمر

واتبع فخر الدين سياسة رشيدة مع الباب العالي (الحكومة العثمانية) فكان يدفع الخراج في حينه .

وكان العثمانيون مشغولين بحروب في اوروبة فسرهم ان يقوم

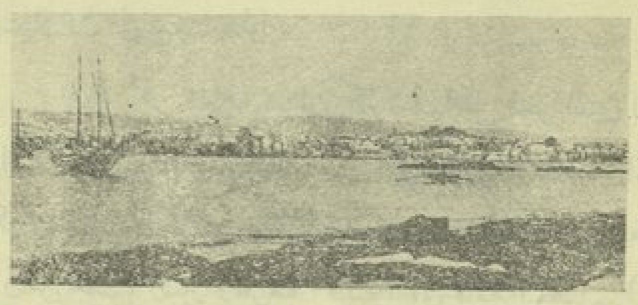
امير كفخر الدين الثاني يحفظ لهم الامن في سورية ، ويرسل الخراج في الاوقات المعينة ، ويحارب اعداء الدولة ، والخارجين عليها من الزعماء المحليين . ولكن ذلك لم يكن الا ستاراً اراد فخر الدين ان يسعى من ورائه الى الاستقلال عن الحكومة العثمانيـة .

الجيش الجديد — اراد فخر الدين ان يكون للبنان جيش وطني دائم فاوجد « مرتزقة » — جنود بالاجرة — اتخذهم من جميع العناصر اللبنانية ، فبلغ عددهم نحو اربعين الفا .

ارتاب السلطان في ميـل فخر الدين الى الاوروبيين — الافرنسيين ، والبنادقة والايطاليين خاصة — فاوعز الى حاكم دمشق الجديد احمد حافظ باشـا بان يحبط مسعاه ؛ وانفض عن فخر الدين كثير من جنده واصدقائه ، فالتجأ الى ايطاليا خوفاً على نفسه ، وبقي هنالك بضع سنين .

رجوع فخر الدين — بعدئذ رضي السلطان عن فخر الدين ، فرجع الى لبنان وقد عزم على ان يوجه كل اهتمامه الى ترقية احوال لبنان الداخلية . من اجل ذلك شجع صناعـة الحرير وزراعة الزيتون ، فازدهرت قرى كثيرة ونشأت ضياع

جديدة . واهتم فخر الدين بالتجارة ايضاً فعقد المعاهدات مع



(شكل ٦٨) مرفأ سوري من القرن الماضي

الاوروبيين فزاد دخل لبنان و كثر الرخاء فيه .

الامتيازات الاجنبية — منحت الدولة العثمانية ، في اول نزولها في هذه البلاد ، بعض الاوروبيين امتيازات تجارية ، فلما جاء فخر الدين وسع هذه الامتيازات وتساهل مع الاوروبيين الذين ظنوا ان هـذه الامتيازات حقوق لهم ، فاستفادوا من ضعف الحكومة العثمانية فيما بعـد واضافوا اليها امتيازات سياسية ودينية وقضائية .

وهكذا صار الاجانب يعملون في هـذه البلاد ويتاجرون من غـير ان يدفعوا ضرائب كالسوريين . واذا اذنب اجنبي لم يستطع القاضي الوطني ان يحاكمه ، بل يحاكمه

قنصل دولته . ولا تزال بلدان الشرق العربي تتألم من هذه الامتيازات الى يومنا هذا .

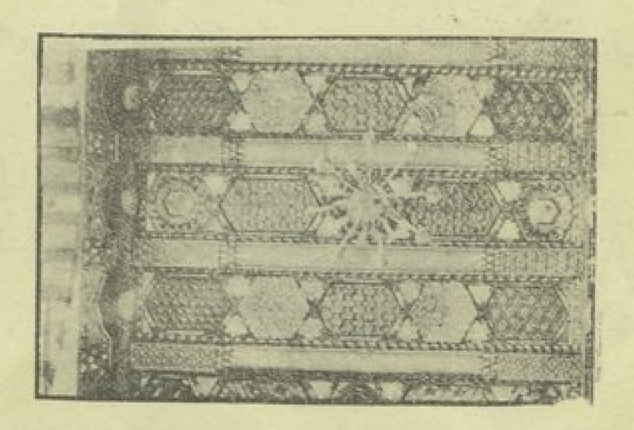
آخرة فخر الدين — ان كثرة تساهل فخر الدين الثاني مع الاوروبيين ، وبعض اعماله الحربية في سورية وفلسطين اثارت شكوك الباب العالي مرة ثانية . فهاجمه احمد باشا حاكم دمشق على رأس جيش كبير وهزمه ، فالتجأ الى قلعة الشقيف (قلعة نيحا في جزين) . فحاصره احمد باشا ثم اسره وحمله الى دمشق مقيداً بالسلاسل ، ومن هنالك الى الاستانة حيث قُتل عام (١٠٤٥هـ د١٦٣٥ م) .

الاسرة الشهابية والاحزاب — لما ذهبت دولة المعنيين استطاع الشهابيون ان يفوزوا بحكم لبنان ، وذلك بمساعدة باشا صيداء وباشا طرابلس ، ولكثرة افراد اسرتهم . وقد اشتد النزاع الحزبي بين القيسيين الذين يلبسون عمة حمراء وبين اعدائهم اليمنيين الذين يلبسون عمة بيضاء . وظهر في هذا النزاع اسر جديدة منهم آل علم الدين وآل ابي اللمع ، وآل تلحوق ، وآل حماده ، واليزبكيون منافسو الجنبلاطيين ، وبنو نكد ، وبنو ارسلان ، وآل الخازن . ثم انقسم هؤلاء

فوقف بعضهم في جانب الشهابيين وانضم بعضهم الى خصومهم ووقف بعضهم على الحياد .

ضاهر العمر — كان ضاهر العمر من اسرة عربية بدوية نشأت في فلسطين . اراد ان يدافع عن المزارعين القرويين لما رأى من سوء حالهم فعصى الدولة العثمانية واستعان بالروس على تنفيذ خططه . ثم استطاع ان يستولي على شمال فلسطين ويتخذ عكاء مقراً له . غير ان الدولة العثمانية تمكنت اخيراً من القبض عليه فقتل عام ١١٨٩ هـ ١٧٧٥ م .

آل العظم في دمشق — آل العظم اسرة توطنت سورية

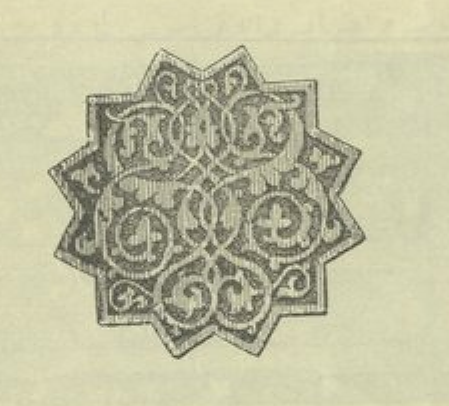


(شكل ٦٩) نقوش من سقف قصر آل العظم في حماه

وكان رجالها باشاوات الشام وحكامها ؛ وقد تولوا ايضاً حكم عكا، وطرابلس وصيداء .

امتازت هذه الاسرة بانها حافظت على ولائها للدولة العثمانية ، وارادات تنظيم البلاد وترقيتها فكان الأمن في زمنها مستتباً والنظام سائداً . وهي الاسرة الوحيدة التي خلفت لنا آثاراً جمة من الابنية الفخمة كقصر العظم الشهير في حماه وفي الشام .

ولا تزال اسرة آل العظم ذات مركز سياسي محترم الى اليوم .



٣٣ـ حملة نابليون على سورية وأثرها

احمد باشا الجزار — كان احمد باشا الجزّار من البوشناق (مقاطعة في البلقان : البوسنة) ، اتى الى هذه البلاد ، واستطاع ان يصبح بعد حين حاكماً ، تمتد سلطته على الساحل السوري من عكاء الى بيروت . وكان يطمع ايضاً بولاية الشام كلها .

ما كادت سلطة احمد باشا الجزّار تتأيد حتى بدأ بتحصين عكاء ، « فسخَّر » ابناء القرى المجاورة في رفع اسوارها وتشييد حصونها . ثم انشأ عمارة حربية (اسطولا) ، والف جيشاً من الفرسان البوشناق والارناؤوط ، ومن المشاة .

الامير بشير الشهابي الثاني — وفي عصر احمد باشا الجزار عاش الامير بشير الشهابي الثاني الذي يعرف ، في تاريخ لبنان ، بالامير بشير المالطي .

حملة نابليون — في منتهى القرن الثامن عشر الميلادي ظهر في فرنسا قائد عظيم يدعى نابليون بونابرت . وكان من

خطط نابليون ان يقضي على سيادة انكلترا ، وذلك بان يأتي الى مصر فيحتلها ويمنع الانكليز من الاتصال بالهند : اعظم الممتلكات البريطانية على الاطلاق .

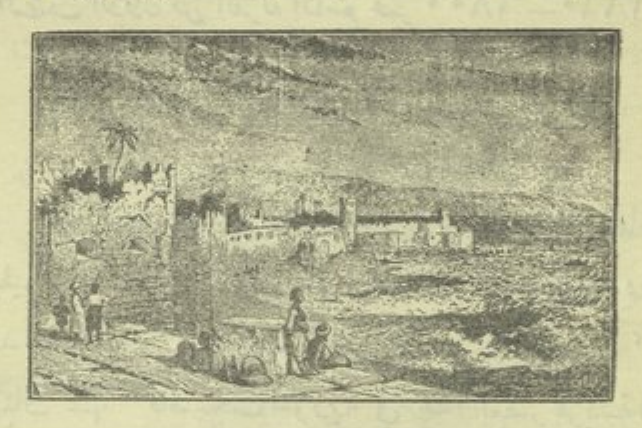


(شكل ٧٠) مركب حربي قديم

لم تكن مصر في ذلك الوقت للانكليز ، بل كانت ولاية عثمانية ، يحكمها المماليك باسم السلطان فاستطاع نابليون ان يهزم المماليك في مصر شر هزيمة ، ولكن بعد حين ادرك الاسطول الانكليزي اسطول نابليون في الاسكندرية واباده عن آخره .

وفي عام ١٧٩٩ جاء نابليون الى سورية فوصل الى عكاء ، وكان احمد باشا الجزار قد حصنها تحصيناً قويا ، وبدأت القوات العثمانية تتوافد من جميع انحاء البلاد ، ولما دارت المعركة عند عكاء وقع جيش نابليون بين نار الاسطول

الانكليزي من البحر ونار الجند من القلعة فهزم جيشه ورجع



(شكل ٧١) عند اسوار عكاء
(عن كتاب للدكتور اسد رستم)
انظر الى زي ايام ابراهيم باشا عام ١٨٣٥

هو الى اوروبة متخفيا .

لم يكن لحملة نابليون من اثر اجتماعي في سورية ، ولكن مما يجب ان يذكر ان نابليون اصطحب كثيراً من العلماء الافرنسيين الى مصر فبدأوا نهضة علمية ادبية هنالك امتد اثرها فيما بعد الى سورية . فان اول مطبعة عربية ؛ اسسها نابليون في مصر و كذلك اول جريدة عربية ؛ ومثل هذا يقال عن انشاء بعض المؤسسات العلمية من مدارس وجمعيات .

٣٤ـ دور الفتن والاضطرابات

بدأ القرن التاسع عشر وسورية لاتزال متأثرة بالحملة النابليونية ؛ والفتن لاتزال تطل برأسها في كل مكان . وقد ساعد على هذا الاضطراب تنافس الاسر الاقطاعية ، التي حدثناك عنها ، فاصبحت سورية في هذا العصر فريسة للفتن الداخلية والغارات الخارجية .

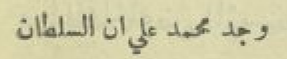


(شكل ٧٢) ابراهيم باشا

ابراهيم باشا في سورية

في الوقت الذي انسحب فيه نابليون من سورية ، كانت مصر على ابواب عهد جديد . لقد اتى الى مصر بعد آن جندي ألباني (ارناؤوطي) يدعى محمد علي ؛ وما زال امره يقوى شيئاً فشيئاً حتى اصبح حاكم مصر كلها .

وجد محمد علي ان السلطان



العثماني محمود الثاني ضعيف جداً لكثرة مشاكله في اوروبة ، فطمع بتأسيس امبراطورية شرقية وجهز حملة تحت امرة ابنه ابراهيم باشا وجهها الى سورية .

نجح ابراهيم باشا حيث خاب نابليون من قبله . فقد استطاع ان يستولي على عكاء ، وبذلك قدر ان يتغلب على الجنود العثمانيين .

العهد المصري وآثاره — نجح ابراهيم باشا في فتح سورية ولكنه خاب في حكمها . لقد نفر السوريون منه لكثرة الضرائب التي فرضها عليهم ؛ ولاعمال السخرة التي اجبر القرويين على القيام بها تسهيلا لاعماله العسكرية : كفتح الطرق ، ونقل العتاد الحربية « آلات الحرب ووسائلها » وتموين الجيش بالطعام واللباس وغيرهما .

وزاد نفور السوريين منه لانه بدأ جمع السلاح من حوران . ثم اخذ يفرق بين السوريين كي يبقى سائداً عليهم ؛ وكان عداؤه للدولة العثمانية يزيد في استياء القسم الاعظم من السكان .

ثورة بني معروف — ولما اشتدت وطأة ابراهيم باشا في حوران قام « بنو معروف » يدفعون عن انفسهم العدوان ،



(شكل ٧٣)

محارب من بني معروف الذين ثاروا على ابراهيم باشا

ثم ثاروا وأبلوا في ثورتهم البلاء الحسن . ومع انه لم يكن لاحد الفريقين انتصار على الآخر فان ابراهيم باشا قنط من التغلب على بني معروف وتركهم احراراً في جبالهم المنيعة .

ثم ثار النابلسيون على ابراهيم باشا وكادوا يفسدون عليه خطته ، فكتب الى ابيه محمد علي باشا فجاء بنفسه لمساعدة ابنه .

نتيجة الحملة المصرية — واخيراً اجبرت الدول الاوروبية ابراهيم باشا على ترك سورية ، فعاد الى مصر ولم يخلِّف في هذه الديار الا الذكرى المؤلمة ، لانه نشر فيها سيئات المدنية الغربية كاباحة القمار مثلاً .

ولما آب الى مصر حمل معه بعض المزارعين ليزرعوا له القطن الذي اشتهرت به عكاء ، وليزرعوا له الارز والتوت ، وحمل معه الصناع ليُدخل صناعات سورية الى وادي النيل .

فتنة عام ١٨٦٠

كان هنالك اسباب عديدة ساعدت على هذه الفتنة المشئومة : منها ان ابراهيم باشا بذر الشقاق بين السوريين ؛ وان الدول الاوروبية كانت ذات مطامع في سورية ، فكانت تساعد دائماً على اضطراب الاحوال ليكون لها حجة في التدخل في شؤونها ؛ ولأن الأُسَر الاقطاعية اشتطت في جباية

الضرائب ، وتحصيل الاموال من الشعب وزادت منازعاتها فحدث فتن كثيرة ، كان اشأمها حادثة عام ١٨٦٠ م

في شهر آب سنة ١٨٥٩ م اختلف شابان درزيان مع شابين مسيحيين ؛ فتشاجروا ووصل الخبر الى اهلهم وقراهم . فاتخذ جُهَّال الفريقين من هذا السبب التافه حجة للقيام بمذابح عمت لبنان واتصلت بسورية . اما العقلاء من المسلمين والنصارى فقد سعوا لصيانة الدماء وحفظ الامن ، واشهر هؤلاء



(شكل ٧٤) سراي بيروت وهو نموذج لطراز البناء التركي

الامير عبد القادر الجزائري الذي حمى مسيحيي الشام في بيته وفي القلعة — بعد ان طلب اذنا من حاكم دمشق — وصنع سليم آغا في حي الميدان بالشام مثل صنع الامير عبد القادر .



(شكل ٧٥) جندي لبناني بعد ١٨٦٠

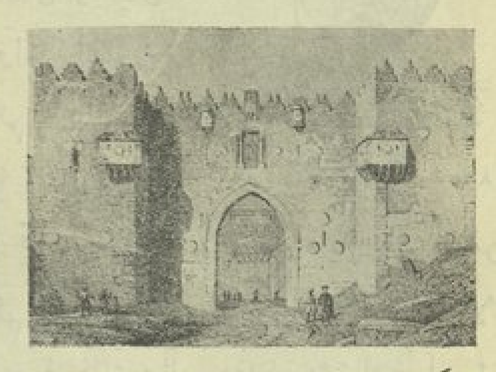
لبنان بعد الفتنة — طلبت الدول الاوروبيـة كانكلترة وفرنسة وروسية من السلطان ان يمنح لبنان استقلالا ، واشترطت ان يكون حاكمه مسيحياً اجنبياً ؛ فكان من حكامه اثنان ارمنيان ، وواحد بولوني وآخر الباني . وبقي هـذا الحكم الى نشوب الحرب الكبرى .

التنظيم الاداري في سورية كلها — وبعد قليل من الزمن ابدل السلطان حكم الباشوات — الخائب — بحكم الولاة الاداريين ، يساعدهم في ذلك مجالس ادارية يشترك فيها بعض الوطنيين ، وهكذا اصبح في سورية قبل نهاية القرن التاسع عشر حكم اداري منظم ، فساد الامن نوعاً واستتب السلام .

النصف الثاني من القرن التاسع عشر

٣٥ـ النهضة العلمية العمرانية

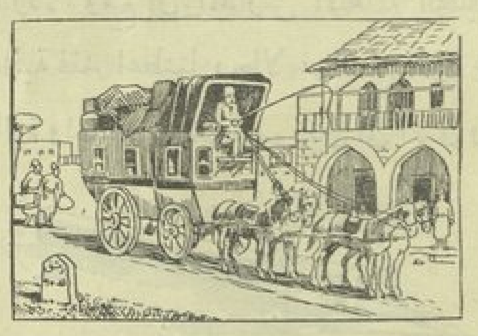
كانت المدن القديمة كلها مسورة ، وقد ظلت كذلك الى اواسط القرن الماضي . وكان للمدينة ابواب تفتح في الصباح وتغلق عند المغرب (عند غروب الشمس) ، فاذا وصل مسافر متأخراً اضطر الى ان يبيت خارج السور معرضاً للوحوش واللصوص. قضت الاسوار على المدن ان لاتزيد مساحتها ابدا ، لان البيوت كانت تبنى دائماً داخل السور ولذلك ترى البيوت القديمة قريبة من بعضها جداً وترى الطرقات فيها ضيقة جداً . ثم اخترع المدفع فلم يبق للسور اهمية ، وجعل الناس يبنون



(شكل ٧٦) باب في سور دمشق ، من القرن الماضي

خارج الاسوار التي تهدم اكثرها . فصرنا اليوم نرى القدس مثلا قد اصبحت مدينتين : المدينة القديمة داخل السور ، والمدينة الجديدة خارج السور .

ازدياد الثروة — زادت التجارة بين سورية واوروبة زيادة عظيمة ، فان سورية كانت تصدر الحرير والزيتون وكثيراً من المصنوعات الشرقية كالصابون الى البلدان الاوروبية . ثم ان مركز بيروت على شاطئ البحر المتوسط جعلها ثغراً لجميع البلدان الواقعة الى جانبها او الواقعة وراءها

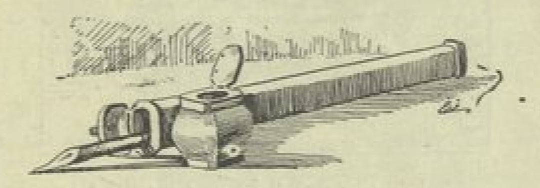


(شكل ٧٧) مركبة للسفر من القرن الماضي

حتى العراق والحجاز . فعمل ذلك على ازدياد ثروة السكان فاخذوا يشترون الاراضي في الجبل وعلى الساحل ، وينشئون البيوت على طراز جميل . وكثرت الاسواق التجارية ،

والشركات والمصارف (البنوك) وكثرت طرق المواصلات ؛ وهكذا زاد العمران .

النهضة العلمية — لما زادت ثروة البلاد مال كثيرون الى العلم ، واتفق ان الارساليات الدينية الاجنبية كانت قد أمّت سورية ولبنان منذ اوائل العصر الماضي ، وانشأت المدارس المختلفة في بيروت وصيداء وحيفا والقدس ؛ فكثر اقبال الاهالي على العلم . وقد قام كثير من المدارس الاهلية في اكثر المدن والقرى ، اما المدارس الرسمية (للحكومة) فخدمت البلاد خدمات محدودة . ومع ان المدارس الاهلية القديمة كانت صغيرة ابتدائية فقد اعطتنا رجالا نوابغ اتموا دروسهم في المدارس العالية واصبحوا فخر السوريين الى الآن والى الابد .

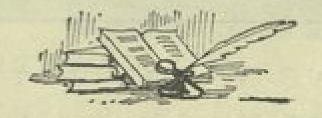


(شكل ٧٨) دواة نحاسية يحملها الانسان في وسطه ، من القرن الماضي

الهجرة — السوري نشيط بالطبع يحب العمل والحركة وتحصيل الرزق . فلما ضاقت سورية على جهود اهلها

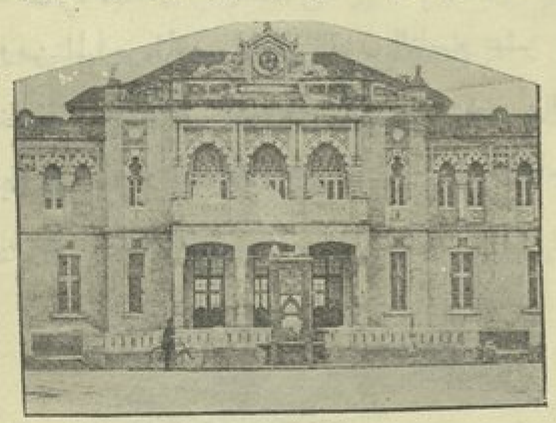
اخذ بعضهم يهاجر الى البلاد الاجنبية لكسب المال . اما اشهر المهاجر فاميركة بقارتيها الشمالية والجنوبية . وقد كان السوري يذهب — من اقاصي غزة او من اطراف حلب او من لبنان — الى اميركة فيشتغل ويكد ويجمع ثروة عظيمة ، ثم يعود بها الى مسقط رأسه ليبني بيوتاً على الطراز الحديث او يفتح متجراً واسعاً ؛ ولكن كثيراً من المهاجرين لايزالون في اميركة حتى اليوم .

ومن المهاجر المقصودة في القرن التاسع عشر افريقية ومصر خاصة ، ولا يزال كثير من كبار التجار والكتاب والموظفين في مصر والسودان من السوريين . وهاجر قسم آخر قليل الى استرالية .



٣٦ـ اليقظة العربية ـ الحرب الكبرى

الحرية العثمانية — لما بدأ القرن الحالي كان العمران قد انتشر والمال قد زاد في البلاد، والعلم قد ساد فيها. فاخذ الناس يفكرون بالحرية السياسية، ويسعون الى ان يعيشوا عيشة



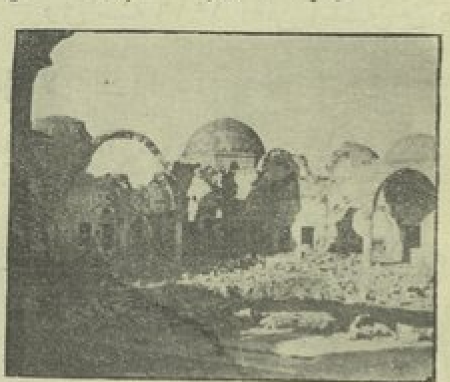
(ش ٧٩) محطة سكة الحديد الحجازية بدمشق وهي مزيج من الطرازين التركي والعربي.

مستقلة كما تعيش الدول الاوروبية. ادركت تركية هذا الميل وخافت ان تنشب الفتن — وهي ضعيفة لا تستطيع مقاومة السكان — فمنحت رعاياها الحرية عام ١٩٠٨م؛ وانشأت مجلساً

نيابياً في استانبول يضم مندوبين من جميع بلاد الامبرطورية العثمانية .

اليقظة العربية — وكانت تركية تحاول الى جنب ذلك ان (تُتَرِّك) السكان — اي ان تجعلهم اتراكا في اللغة والعادات والحياة — فلم يرض العرب عن ذلك ؛ وقام منهم جماعة الفوا جمعيات سرية لمقاومة هذه الحركة .

سورية والحرب الكبرى — في اثناء ذلك نشبت



(شكل ٨٠)
الجامع الكبير في غزة بعد تدميره سنة ١٩١٨

الحرب الكبرى في اوروبة ثم عمت العالم واشترك فيها مايقارب الثلاثين دولة .

شهداء العرب — لما دخلت تركية الحرب الى جانب

المانية ؛ اصبحت بلادنا في معزل عن العالم الخارجي فاستطاع الانراك ان يطاردوا الشبان الذين كانوا يسعون لمنح البلاد العربية استقلالها ، واطلعت على اسرارهم فاتهمتهم بانهم يريدون فصل البلاد العربية عن جسم الامبرطورية العثمانية . من اجل ذلك حاكمتهم في المحكمة العُرفية العسكرية في عاليه (لبنان) وشنقتهم عام ١٩١٦ . ولا يزال العرب حتى اليوم يحتفلون بذكرى الشهداء في السادس من شهر ايار .

الثورة العربية — وفي سنة ١٩١٦ اعلن الحسين بن علي شريف مكة الثورة على الانراك وارسل ابنه فيصلاً على رأس جيش فدخل سورية بعد عدة معارك على الحدود .



(شكل ٨١) السلطان حسين بن علي

سورية بعد الحرب الكبرى — كانت سنوات الحرب

الكبرى (١٩١٤ – ١٩١٨) عصر انتقال . لذلك تعيش انت اليوم في عصر غير الذي كان يعيش فيه ابوك وجدك ، مع ان المدة التي انقضت على اعلان الحرب لم تتجاوز بعدُ عشرين عاما . ويظهر ذلك من مقابلتك العمران الذي تراه في بلدك بحالة المدن التي درست احوالها في الفصول السابقة .

ان الذين عاشوا قبل الحرب الكبرى لم يروا السيارات كما تراها انت الآن ، ولم يستمعوا الى (الراديو) قط ، ولم يشاهدوا طيارة الا نادراً ، ولم يكن لهم هذه الشوارع العريضة والمتنزهات الظليلة التي تتمتع انت بها الآن .

ولا تنس ارتفاع الاسعار ، وقحط الاراضي والجوع التي اصابت سورية في هذه الحرب المشئومة كما اصابت غيرها من البلاد .

خمود الحركة العمرانية والاقتصادية – انصرف الناس في اثناء الحرب الكبرى الى الاحتيال على كسب معاشهم فان ارتفاع الاسعار وقلة الغلال وانقطاع ورود المصنوعات المختلفة من الخارج جعلت سورية – كما جعلت غيرها من البلاد ايضاً – في حالة حصار ، فكان اهتمام الناس الاول بالحصول

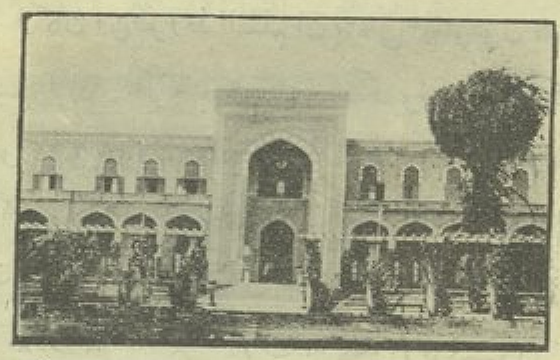
على القوت ودفع الامراض . ومع ان السوريين قد بذلوا جهوداً عظيمة للتغلب على ويلات الحرب فقد هلك منهم عدد كبير وخربت ضياع كثيرة ؛ ولا يزال السائر في بعض قرى لبنان يرى بيوتاً متهدمة كانت قبل الحرب العامة مسكونة عامرة .



(شكل ٨٣) مشهد لتوزيع الخبز في الحرب الكبرى

وهكذا كان من النادر ان ترى في الحرب الكبرى ابنية جديدة او متاجر عظيمة ، او حركة علمية قوية . لقد

كان هم الناس ان يجتازوا زمن الحرب ويؤمّنوا حاجياتهم الضرورية ، ثم اذا انتهت الحرب يفكرون في المشاريع العظيمة والحركات العلمية واسباب الترف ، حتى ان كثيراً من الناس قنطوا من رؤية السلم مرة ثانية في هذا العالم . ولكن لاتظن ان هذه الحال سادت في بلادنا فقط . ان بلادنا كانت خيراً من غيرها بكثير .



(شكل ٨٣) قصر الصنوبر في بيروت بني في اثناء الحرب الكبرى

٣٧ـ سورية تحت الانتداب

الاحتلال الانكليزي ـ الافرنسي — انتهت الحرب الكبرى بانتصار انكلترة وفرنسة واميركة وحلفائها، وباندحار المانية وتركية والنمسة واحلافها بعد ان طلبت المانية الهدنة للبحث في شروط السلام يوم ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ .

وكان من شروط السلم ان يتخلى المغلوبون للمنتصرين عن جميع البلدان الاجنبيـة التي يحكمونها ، وهكذا خرج العثمانيون من سورية بعد ان حكموها اكثر من اربعة قرون (١٥١٦ ـ ١٩١٨م) ودخلها الانكليز والافرنسيون تتقدمهم القوات العربية والمصرية عن طريقي دمشق والقدس .

بعدئـذ اقتسم الانكليز والافرنسيون سورية واستبدلوا الحكم العسكري بانتداب . والانتداب حكم موقت ينتهي متى اصبح اهل البـلاد قادرين على حكم انفسهم بانفسـهم .

منطقة النفوذ الانكليزي — حيـنما اقتسم الانكليز

والافرنسيون النفوذ في سورية استولى الاولون على القسم الجنوبي منها — فلسطين وشرق الاردن — ولا تزال فلسطين حتى اليوم خاضعة لنفوذ المفوض السامي البريطاني مباشرة . غير ان الانكليز يفكرون في انشاء حكومة وطنية نيابية منذ زمن بعيد، ولكنهم لم ينفذوا ذلك حتى اليوم؛ ولعل اعقد ما في هذه القضية المسألة الصهيونية التي سنحدثك عنها بعد اسطر .

امارة شرق الاردن — انشأ الانكليز في عبر الاردن



(شكل ٨٤) سمو الامير عبد الله بن الحسين ، امير شرق الاردن .

امارة عربية يحكمها الامير عبد الله بن الملك حسين الهاشمي؛ وتضم هذه الامارة البلدان الواقعة شرق الاردن والبحر الميت. وفي شرق الاردن كثير من القبائل البدوية.

القضية الصهيونية - مازال اليهود منذ تشتتوا في انحاء الارض يفكرون في جمع شملهم وتأليف حكومة تضمهم في صعيد واحد، وقد ارادوا ان يكون هذا الصعيد الواحد فلسطين، غير انهم لم يُوفقوا لاعلان فكرتهم الا حديثاً.

بدأ اليهود منذ القرن الماضي بالهجرة الى فلسطين، وانشأوا فيها جمعية استعمارية تشتري الاراضي ثم تبيعها من اليهود بيعاً لفظياً. اي انها تقدم لهم الاراضي بثمن ضئيل جداً ثم تستوفي الثمن في خمسين او ستين سنة. وعلى هذا كان لليهود في اثناء الحرب مائة الف دونم من الاراضي في منطقة حيفا وحدها يقيم فيها نحو الف يهودي مستوطنين ومهاجرين، وقد كانوا يؤلفون في ذلك الوقت نحو عشرة بالمائة من السكان لان منطقة حيفا كان فيها نحو عشرة آلاف شخص فقط.

وبعد الحرب الكبرى سمح الانكليز لليهود بانشاء

وطن قومي في فلسطين ، ولكن الوطنيين العرب : مسلمين ومسيحيين يقاومون هذه الفكرة مقاومة فعلية ، وقد ألفوا الجمعيات الوطنية لمقاومتها .

منطقة النفوذ الافرنسي — وضعت سورية الشمالية تحت الانتداب الافرنسي بعد ان تركت منطقة دمشق وحمص وحماه خاضعة لحكومة وطنية يرأسها الامير فيصل بن الحسين الهاشمي ؛ وفي ٨ آذار سنة ١٩٢٠ اعلن استقلال سورية وجُعل الامير فيصل ملكا عليها .

موقعة ميسلون — غير ان المملكة السورية لم تعش طويلا ، فقد قام خلاف بين حكومة باريس وبين حكومة دمشق انتهى بان التقى الجيش الافرنسي تحت امرة الجنرال غورو المفوض السامي الفرنسي بالجيش السوري بقيادة يوسف بك العظمة في مَيسلون غربي دمشق (٢٠ تموز سنة ١٩٢٠) ؛ فانتصر الافرنسيون وقضوا على المملكة الفتية في دمشق . وفي هذه المعركة استشهد يوسف العظمة ، ولا يزال قبره يُرى في ميسلون على طريق السيارات بين بيروت ودمشق .

العلم والعمران بعد الحرب — اندفع السوريون بعد الحرب الكبرى نحو العلم اندفاعا غريبا ، فازداد عدد المتعلمين تعليما عاليا ، وكثرت المدارس الاهلية كثرة تدعو الى الاعجاب . وقد استطاع بعضها ان يضاهي المعاهد الاجنبية ويتفوق عليها .

اما العمران فقد كثر في المدن الكبرى وفي قرى الاصطياف وفي الاسواق التجارية ، واكثرها مبني على طراز حديث خليط من الفن الوطني والفن الغربي (١) .



---

(١) نرى ان نقف بالتلميذ عند عام ١٩٢٠ لان ما بعد ذلك غير مستقر ، فضلا عن ان التلميذ يرى اثار عهده الحاضر عيانا .

اوقات درس التاريخ ومواعيده

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

جدول الدروس

